

الخطاب الحسيني

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ـ وزارة الثقافة ١٠٨٦

لسنة ٢٠٠٩م

الياسري، عبد الكاظم محسن.

الخطاب الحسيني في معركة الطف: دراسة لغوية وتحليل / تأليف عبد الكاظم محسن الياسري.
- كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٣٠ق. = ٢٠٠٩م.

١٥٩ص. - (قسم الشؤون الفكرية والثقافية؛ ٣٣)

المصادر: ص. ١٥٣ - ١٥٥ ؛ وكذلك في الحاشية.

١. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. - خطب - دراسة وتحقيق. ٢ . واقعة كربلاء، ٦١ق. - فلسفة. ٣ . الخطابة - فن - تأثير الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. ٤ . المحاورة - فن - تأثير الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. ٥. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. - الأربعين - تاريخ ونقد. ٦ . الشيعة - الشعائر والمراسيم المذهبية - كربلاء. ألف. عنوان.

BP ٤١ / ٧٥ ٢ي ٦خ

تمت الفهرسة في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر

الخطاب الحسيني في معركة الطف

دراسة لغوية وتحليل

تأليف

الدكتور عبد الكاظم محسن الياسري
استاذ اللغة والنحو في كلية التربية جامعة الكوفة

إصدار
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩
Web: www.imamhussain-lib.com
E-mail: info@imamhussain-lib.com

مقدمة القسم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لسبيل المعرفة الحقة التي تشرق على النفوس من خلال استلهامها حكم أهل البيت عليهم السلام ومعارفهم وعلومهم لاسيما ما ورد عن الإمام السبط الشهيد أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

توالت الاقلام لتكتب عما يجول في أذهان أصحابها من فهم ومعرفة لكلام سادة البشر الذين هم أئمة الأنام وكلامهم إمام الكلام، وممّن كتب في ذلك أستاذ اللغة والنحو في جامعة الكوفة الدكتور السيد عبد الكاظم الياسري ليتحفنا بدراسته اللغوية وتحليله الدقيق في خطب الإمام الحسين عليه السلام التي ألقاها منذ تحركه المبارك من المدينة إلى حين وصوله إلى أرض الشهادة والفداء كربلاء المقدسة، فكانت له صولة وجولة في تسخير الفقه اللغوي وأبوابه كأداة للوصول إلى معرفة مراد الإمام عليه السلام، فهو تارة يشير إلى كيفية استعمال الإمام عليه السلام العبارة القرآنية في خطابه، وأخرى يحدثنا عن كيفية تسخير الحديث النبوي في خطب الإمام عليه السلام، وثالثة يبين لنا كيف اتخذ الإمام الحسين عليه السلام الأسلوب البسيط في تركيبه والسهل في تعبيره سبيلاً ليوصل ذلك إلى جميع المتلقين حتى يتحقق الهدف من الخطبة، وأكد الأستاذ المؤلف على أن الإمام الحسين عليه السلام هو ذلك العربي الفصيح الذي لا يخلو خطابه من الشعر أو النثر وأنواع النصوص الأدبية.

وهناك الكثير من التحليل والاستنتاج والعمق في فهم نصوص الخطب الحسينية بلحاظ لغوي لا نريد أن نشير إليه لكي نترك للقارئ الكريم أن يقرأه ويستمتع به وينتفع منه أيّما انتفاع.

ولذا حرص قسم الشؤون الفكرية على طبع هذا الكتاب القيّم لكي يكون مصدراً من مصادر الخطباء والأدباء وأهل الفن، ويكون رافداً من روافد الثقافة الإسلامية.

ونسأل اللّه تعالى أن يوفقنا إلى خدمة العلم وطلابه وعلمائه، إنه حميد مجيد.

الشيخ علي الفتلاوي

رئيس قسم الشؤون الفكرية والثقافية

المقدمة

الإمام الحسين وثورته عطاء لا ينضب ومنهل عذب نهل منه الدارسون منذ القرن الأول للهجرة إلى يومنا هذا وما زالوا، وهذه الدراسة تمثل جانباً من جوانب الدراسات التي كتبت عن ثورة الإمام الحسين عامة، وعن الخطاب الحسيني خاصة.

وتسهم هذه الدراسة في إيضاح الأبعاد اللغوية للتراكيب التي بنى عليها الإمام خطابه، وكيف استطاع من خلال هذه التراكيب التي استعملها أن يعبر بدقة في كل مقام يقوم فيه عن أهداف ثورته ويبين مواقفه من الحكم الأموي.

وقد تضمنت فصول البحث تحليلاً دقيقاً ـ من وجهة نظرنا ـ لما أراده الإمام في كل فقرة من فقرات خطابه من خلال صياغة الأبنية اللغوية لمفردات هذا الخطاب وتراكيبه.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الدراسة ليست الوحيدة في هذا الميدان، إنما هي مسبوقة بعدد من الدراسات لباحثين آخرين، تناولت جوانب مختلفة من كلام الإمام الحسين وأصحابه، وقد أصبحت هذه الدراسات مصدراً مهماً من مصادر دراستي، وقد أفدت منها كثيراً ولهم فضل السبق في هذا الميدان ومن الدراسات التي اطلعت عليها:

١ . نثر الإمام الحسين، دراسة بلاغية للباحث ميثم مطلك.

٢ . المأثور من كلام الإمام الحسين، دراسة لغوية للباحث عصام عدنان رحيم.

٣ . تأملات في الخطاب الحسيني، محمد مهدي الآصفي.

٤ . التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية للباحث هادي سعدون هنون.

وقد أفدت من هذه الدراسات في جوانب مختلفة من هذا البحث غير أني سلكت في دراستي منهجاً لم يسلكه أحد من الباحثين في تبويب هذا الخطاب، وكانت دراستي تختلف عن كل الدراسات في هذا الميدان، فقد اقتصرت فيها على دراسة الخطاب الحسيني الذي يتصل بمعركة الطف دون غيره من كلام الإمام (عليه السلام).

لقد تم التركيز في هذه الدراسة على محاولة الوصول إلى الدلالات التي تترشح من خلال أبنية التراكيب اللغوية، وتميز هذا الخطاب في مراحله المختلفة، وبيان ما تنبئ به الأساليب التي استعملها الإمام في كل مرحلة من مراحل هذا الخطاب والتي اختلفت فيها مقامات هذا الخطاب ثم بيان القرائن التي تتضافر في المفردة والتركيب لتؤدي الدلالة التي يريد الإمام التعبير عنها في كل مقام، مع التأكيد على الدلالات المركزية وظلال المعنى في تراكيب هذا الخطاب. بدأت الدراسة بتمهيد عن الظاهرة الحسينية وخلودها عند الأجيال المختلفة وعلى مر العصور، وما يجري من مراسم لإحياء هذه المناسبة في كل عام.

وفي الفصل الأول عرضت للمصادر التي استمد منها الإمام مرتكزات خطابه في مراحله المختلفة، ومنها القرآن الكريم؛ والحديث النبوي، وكلام العرب.

وفي الفصل الثاني درست المرحلة الأولى من مراحل الخطاب الحسيني، وتضمنت خطاب الإمام الحسين في المدينة ومكة ورسائله إلى أمراء العرب في الكوفة والبصرة وقد انتهت هذه المرحلة بخروج الإمام من مكة في سنة (٦٠هـ) في التاسع من ذي الحجة.

وفي الفصل الثالث عرضت للخطاب الحسيني في مرحلته الثانية؛ وهي مرحلة المسير، وقد درست بها ما تكلم به الإمام الحسين خلال مسيره بدءاً من خروجه من مدينة مكة حتى وصوله إلى أرض كربلاء. أما الفصل الرابع فيمثل المرحلة الثالثة من مراحل الخطاب الحسيني، وقد عرضت فيها خطاب الإمام الحسين بعد نزوله في كربلاء وحواره مع الجيوش التي اجتمعت لقتاله حتى استشهاده (عليه السلام) هو وأصحابه وأهل بيته.

وفي الفصل الخامس من الدراسة تحدثت عن الأبعاد المختلفة للخطاب الحسيني بوصفه منهجاً لكل الثائرين والمظلومين، وعن ديمومة هذا الخطاب واستمراره حياً على مر العصور.

ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية وكتب المقاتل قد اختلفت في نصوص الخطاب الحسيني زيادة ونقصاً، وقد اعتمدت في اختيار النصوص التي درستها على أدق الدراسات في توثيق النصوص، وهي الدراسات الأكاديمية التي وضعت ملاحق للخطاب الحسيني، فضلاً عن كتب التاريخ القديمة.

لقد حاولت استقراء ما ورد في خطاب الإمام الحسين من أهداف ودلالات تتصل بأنحاء الحياة الإنسانية كلها، ذلك أن الإمام الحسين ومنهجه في حياته وخطابه يمثل امتداداً لمنهج جده الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومنهج أبيه أمير المؤمنين فالحسين امتداد لهذه المدرسة العظيمة التي غيرت وجه العالم وأخرجته من الظلمات إلى النور.

وفي هذه الدراسة أسأل الله أن أكون موفقاً فيما اجتهدت لتقديمه، وأسأل القارئ أن ينظر إليها بعين الرضا، لأنها كفيلة بإخفاء العيوب والتقصير الذي يلازم الإنسان، وأسأله أن يتجاوز ما كلَّ فكري عن إدراكه من خفايا هذا النص البليغ، وماسها عنه قلمي الضعيف. وأُقدم شكري وتقديري لأصحاب الفضل ممن سبقني في هذا الميدان، وأَفدت من دراسته فهم الذين مهدوا الطريق، وسرنا على خطاهم، ولي أمل أن تجد هذه الدراسة مكانها في خدمة المسيرة الحسينية، والله ولي التوفيق ومنه نستمد العون، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين وأهل بيته الطيبين الطاهرين، وسلام على الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين.

الدكتور عبد الكاظم محسن الياسري

نيسان ـ ٢٠٠٩

التمهيد: الخلود الأبدي

تمر العصور ويهلك الملوك وتدول الدول وتزول الحضارات، ويفنى البشر على اختلاف صفاهم، ويسدل التاريخ ستاره على أحداث الدنيا، وتبقى قضية الإمام الحسين (عليه السلام) حية تجدد على مر العصور واختلاف الأزمنة، وكأنها حدثت في هذا اليوم.

كذب الموت فالحسين مخلد   كلما أَخلق الزمان تجدد

ولعل سؤالاً يدور في الأذهان:

ألم تحدث في تاريخ الدنيا مأساة مثل مأساة الحسين فيخلدها؟

بلى: إن في تاريخ الدنيا كثيراً من المآسي، وفيه كثيراً من الثائرين لكن التاريخ يسدل ستاره عليها بعد قرن أو قرنين من الزمن فينساها الناس، أما مأساة الحسين فإن خلودها سر من أَسرار الله في الإمام الحسين عليه السلام، وسوف يبقى الإمام الحسين ومأساته خالدين إلى يوم يبعثون، وستبقى ذكرى الحسين حية تجدد إلى قيام الساعة.

ويبقى الحسين ليوم الحساب   مناراً به تهتدي الكائنات
ويبقى الحسين ليوم الحساب   حديثاً تجدده الذكريات
ويبقى الحسين ليوم الحساب   نشيداً على الألسن الناطقات

لقد كان الإمام الحسين مدرسة علّمت أهل الدنيا كيف ينتصر الدم على السيف، وكيف يكون الإنسان مظلوماً فينتصر على من ظلمه، ولا غرابة أن يتعلم أهل الدنيا من الإمام الحسين، فهو وارث علم الأنبياء جميعاً، ووارث علم جده وأبيه، ألم نقرأ في زيارته:

﴿السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله، السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله﴾[1].

كيف لا تتعلم الدنيا من هذا الإرث العظيم؟ وهل من إرث أعظم من هذا؟، لقد تغير الأمر بعد هلاك معاوية وبيعة يزيد، وشعر أهل العراق بالخطر الداهم وأحسوا بحاجتهم إلى منقذ ولم يجدوا سوى الإمام الحسين، فانطلق سيل من الكتب والوفود من العراق إلى الحجاز جددوا من خلالها البيعة للإمام الحسين ودعوه للقدوم إلى بلدهم.

«لقد أينعت الثمار، واخضر الجناب، أقدم علينا يا ابن بنت نبينا، نحن لك جند مجندة وسيوف مشرعة، معكم معكم لا مع عدوكم، شيعة أبيك تدعوك لعقد البيعة».

هذه العبارات وغيرها وردت في كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين، ويقف الإمام مفكراً في حقيقة هذه الدعوة، وصدق نوايا الداعين. فالداعون هم أهل الكوفة، وهم شيعة أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، منهم من شهد معه الجمل وصفين والنهروان، ولكي يقف الإمام على صدق النوايا، ويضع الأمور في نصابها، بعث إليهم سفيره وابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب. ويصل رسول الإمام مدينة الكوفة، وتدخل عليه الوفود وهي تعلن ولاءها وبيعتها للإمام الحسين، ويدخل المسجد ويصلي وراءه مئات المصلين، وحين اطمأن مسلم إلى صدق النوايا وإخلاص القوم، بعث إلى الإمام الحسين من يخبره بواقع الحال وما استقر عليه رأي القوم، ويعزم الإمام على الخروج من مدينة مكة إلى العراق وسط معارضة شديدة من أبناء عمومته وعدد من الصحابة والتابعين.

---

(١) زيارة وارث.

ويودع الإمام بيت الله الحرام ومن لم يخرج معه من أهل بيته، وينطلق ركب من الحجاز إلى العراق، يقطع الفيافي والقفار، يحدوه الإمام الحسين، وتحف به كوكبة من أهل بيته وأنصاره يحملون معهم نساء الحسين وأطفاله وعدداً من الهاشميات ونساء الأنصار.

ويدخل الركب أرض العراق، وتدور الأيام دورها ويستبدل والي الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري بعبيد الله بن زياد، ويدخل عبيد الله الكوفة متنكراً ويلقي فيها خطابه المشهور، وينجح في صرف الناس عن بيعة الإمام الحسين بالإغراء حيناً وبالتهديد حيناً آخر، ويجد مسلم نفسه وحيداً في الكوفة، ويطلبه عبيد الله بن زياد وتنتهي المعركة باستشهاده ومعه هاني بن عروة في قصة يذكرها أرباب المقاتل[(١)].

ويصل نبأ استشهاده إلى الإمام الحسين فيبكيه حزناً وينعاه إلى أبناء عمومته من بني هاشم وأنصاره.

ويقف الإمام الحسين مسترجعاً إلى الله ثم يقرر مواصلة المسير، ولم يثنه ما حدث من انقلاب في الكوفة عن المسير حيث المصير الذي أراده الله له.

ويصل الركب بعد مسير طويل المكان الموعود، أرض كربلاء ويأمر الإمام أصحابه بالنزول.

«هاهنا والله مناخ ركابنا، هاهنا والله قتل رجالنا، هاهنا والله سبي نسائنا».

ينزل ركب الإمام وأصحابه في كربلاء ويجد نفسه أمام جيوش لا أول لها ولا آخر أُعدت لقتاله، يسمع قعقعة السلاح وصهيل الخيل وقرع طبول الحرب، وبعد حوار طويل مع القوم الذين اجتمعوا لقتاله ـ سيرد كثير منه في الدراسة ـ كان الغرض منه إلقاء الحجة عليهم، لم يكن أمامه بد من القتال وتحدث المعركة الفاصلة في العاشر من

(١) ينظر مقتل الإمام الحسين، المقرم ١/٤٠.

المحرم سنة (٦١هـ) ويثبت الإمام الحسين ومن معه من أهل بيته وأنصاره أمام هذا السيل من الخيل والرجال في قتال لم يشهد له التاريخ مثيلاً، ضربوا فيه أروع الأمثال في الشجاعة والتضحية والإيثار والوفاء للعقيدة.

وينجلي غبار المعركة عن استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره، وسبيت نساؤه وأطفاله إلى الكوفة ثم إلى الشام في مأساة لا نضير لها في تاريخ الإنسانية، ليبدأ بعدها سر الخلود الأبدي فيصبح الإمام الحسين ذكراً على كل لسان، ونبضاً في كل قلب، ومدرسة يستلهم منها الناس العبر على مر القرون، لقد رسم الإمام الحسين هذه الصورة المأساوية قبل استشهاده في واحد من خطاباته حين تمثل بأبيات فروة بن مسيك[1].

فإن نهزم فهزامون قدماً   وان نهزم فغير مهزمينا
وما إنّ طبنا جبن ولكن   منايانا ودولة آخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا   سيلقى الشامتون كما لقينا

وهزت مأساة الحسين أركان السموات والأرض، وأصيب العالم الإسلامي بالذهول من هول الصدمة التي أجهز فيها الظالمون على أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، فأصبحت ديارهم خالية، وبيوتهم خاوية وبكتهم ملائكة السماء وأهل الأرض.

وانطلقت أصوات الشعراء والأدباء والكتاب لرسم الصورة المعبرة عن هذه المأساة منذ القرن الأول للهجرة إلى يومنا الحاضر، ومن الشعراء الذين رسموا صورة رائعة لمأساة بيت النبوة دعبل الخزاعي في تائيته المشهورة[2] يقول:

(١) تاريخ ابن عساكر / ١٩٥.
(٢) ديوان دعبل الخزاعي / ١٢٣.

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفنات
هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا ... وهم خير سادات وخير حماة
أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً ... وقد مات عطشاناً بشط فرات
اذن للطمت الخد فاطم عنده ... وأجريت دمع العين بالوجنات
أفاطم قومي يا ابنة الخير ... نجوم سماوات بأرض فلاة

ويبقى ذكر الحسين خالداً مع كل دمعة حزن تأرجحت بين الجفون على مر القرون، ويبقى الحسين خالداً مع كل صرخة مظلوم في وجه ظالم على مر العصور ويبقى الحسين خالداً مع كل صيحة حق في وجه باطل مدى الدهر.

لقد حاول الطغاة والخلفاء والأمراء والحاقدون وأعداء أهل البيت أن يطمسوا ذكر الحسين، ويخفوا قبره بمختلف الوسائل والطرق قديماً وحديثاً، فذهبوا، وبقي الحسين خالداً يطاول قبره عنان السماء، تقصده ملايين الزائرين من مختلف أنحاء العالم، هذه إرادة الله وسره في الإمام الحسين إلى يوم الدين.

لا أراني مبالغاً إذا قلت اننا نرضع حب الحسين مع حليب أُمهاتنا وننشأ على حبه منذ أن تطأ أقدامنا الأرض، لا يدخل أحدنا بيتاً الا يسبقه ذكر الحسين، ولا يشرب ماءً الا مع ذكر الحسين، ولا يشم هواءً الا فيه عطر الحسين، إنّ كل خلية في أجسامنا ينبض فيها حب الحسين، فهو معجون في دمائنا، يسري معها إلى كل مفصل من مفاصل أجسامنا، وهذا هو قدرنا المحبب.

إنّ كل شيء في حياتنا يذكرنا بمأساة الإمام الحسين، فهو يعيش معنا في كل يوم، تذكرنا به مصائبنا التي تهون مهما كانت قسوتها أمام مصيبته، تذكرنا به أحزاننا وآلامنا

وأفراحنا، يذكرنا به الماء الذي نشربه، وقد عاشت أجيال ومضت على حب الحسين من القرن الأول للهجرة إلى يومنا هذا وسوف يبقى إلى قيام الساعة.

ويبلغ الاهتمام بذكرى مأساة الحسين ذروته في شهر محرم الحرام من كل عام؛ وهو الشهر الذي حدثت فيه أعظم مأساة في تاريخ الإنسانية، واستشهد فيه الإمام الحسين ومن معه من أهل بيته وأنصاره وسبيت نساؤه وأطفاله.

وفي شهر صفر؛ وهو الشهر الذي فيه أربعينية الإمام الحسين وعودة السبايا، وسوف أقف عند المظاهر التي تجري في هذين الشهرين، لأقدم وصفاً واقعياً لما رأيته بعيني.

١ـ شهر محرم الحرام

شهر محرم من الأشهر الحرم عند الله سبحانه وتعالى، وعند العرب قال تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ التوبة / ٣٦.

وشهر المحرم واحد من هذه الأربعة، وفي العاشر من هذا الشهر سنة (٦١هـ)، جرت معركة من أعظم المعارك بين الكفر والإيمان بين الظلام والنور، بين الحق والباطل وانتهت بأعظم مأساة عرفها تاريخ البشرية، فقد استشهد فيها الإمام الحسين وأهل بيته وحملت رؤوسهم على الرماح وسبيت نساؤهم وأطفالهم من كربلاء إلى الكوفة ثم إلى بلاد الشام.

استشهد الإمام الحسين وأصحابه من أجل دين الإسلام وصلاح الأمة، وهذا هو الهدف الذي أشار إليه الإمام الحسين حين عزم على الخروج إلى العراق قال:

«والله إني لم أَخرج أَشراً ولا بطراً إنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي»[(١)].

---

(١) مقتل الإمام الحسين، الخوارزمي ١ / ١٤٣.

استشهد الإمام الحسين وأصحابه، لتكون دماؤهم القربان الذي حفظ دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من الانحراف، استشهد بعد أن دوت صرخته في أقطار السموات والأرض.

إنْ كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني

وأخذته السيوف هو وأصحابه بعد أن أذن لها، وصار شهر محرم من ذلك الحين، شهر حزن والم عند أتباع أهل البيت وغيرهم، وسيبقى هكذا تتوارثه الأجيال إلى يوم يبعثون.

وحين يحل شهر محرم من كل عام يبرز الحزن المكنون في الصدور، وتتشح المدن بالسواد، ويعيش الناس أجواء حزن يعبر عنها كل فرد بطريقته الخاصة، وترتفع الأعلام بألوانها المختلفة في الشوارع والمساجد والحسينيات والبيوت والعمارات، وهي تحمل شعارات الحزن المختلفة حتى يخيل للناظر أنه يرى غابة من الأعلام تزدحم في سماء المدن العراقية حتى أصبح رفع الأعلام في هذا الشهر تقليداً في هذه المناسبة.

ومما يلفت النظر في هذا الشهر تلك المواكب الحزينة التي تنطلق من كل مكان تجوب الشوارع والساحات، وهي تتوشح بالسواد وتلطم صدورها ورؤوسها تعبيراً عن حزنها وألمها، وهي تسير في تنظيم رائع لا مثيل له، وهي تندب من خلال ما ترده من أشعار ذلك الجسد الذي قضى ظامياً على أرض كربلاء، وهشمت ضلوعه خيل الطغاة.

وقد رسم السيد حيدر الحلي هذه الصورة بقوله:

حيث الحسين على الثرى خيل العدى طحنت ضلوعه

قتلته آل أمية ظام إلى جنب الشريعة[1]

---

(١) الاسرار الحسينية / ٩.

ويشد سمعك تلك الأصوات الشجية التي تنطلق من منارات المساجد والحسينيات والأماكن المقدسة والبيوت والمواكب والعمارات والشوارع، ويخيل إلى من يستمع إليها انها تصعد إلى عنان السماء، يرددها كل حجر ومدر، وان صوتاً ينطلق من السماء الدنيا مردداً **(واحسيناه)** وتختلط هذه الأصوات مع أصوات المواكب التي تجوب الشوارع وتندب **(واحسيناه وا إماماه)** لتجسد أعظم ملحمة للحزن عرفها تاريخ الإنسانية.

وحين تدخل مدينة مثل كربلاء في هذه الأيام تجد مظاهر الحزن تخيم على أجوائها وشوارعها وبيوتها وأماكنها المقدسة، وهذا شأن كل مدينة عراقية في الوسط والجنوب، السواد يوشح كل شيء: واجهات المحلات؛ والعمارات؛ والأبنية؛ والشوارع؛ والمراقد المقدسة، وتمثل شعارات الحزن مظهراً من مظاهر هذه المناسبة تحملها الأعلام واللافتات التي ترتفع في كل مكان من المدينة، أصوات النعي تنطلق من مكبرات الصوت وهي تندب الإمام الحسين، وكلها ترسم صورة لمشهد الحزن الكبير الذي يلف مدينة كربلاء، مدينة الإمام الحسين، تتداخل هذه الأصوات، وتختلط مع بعضها لتمثل أعظم سمفونية للحزن في الدنيا، وقد يبرز من بين هذه الأصوات الحزينة المتداخلة صوت يشد انتباهك، ويستحوذ على مسامعك، ويسيطر على مشاعرك، حتى كأنك لا تسمع سواه على الرغم من كثرة الأصوات التي يضج بها سماء المدينة، وهذا ما حصل معي حين دخلت هذه المدينة المقدسة في العاشر من محرم من العام الماضي، فقد سيطر على مسامعي، واستولى على مشاعري صوت الشيخ ياسين الرميثي ــ رحمه الله ــ الذي ينطلق من أحد المواكب الحسينية في باب القبلة.

يــــا حـــــسين بـــــضمايرنا　　　صـــــحنا بيــــك آمنـــــا
لا صـــيحة عواطـــف هـــاي　　　لا فكـــــــرة ومجـــــــرد راي
هـــــذي مــــــن مبادئنـــــا　　　صـــحنا بيـــك آمنـــا....

ويخيل إليك أن أشجار النخيل والمنارات والمآذن والعمارات والناس تردد هذه اللازمة فتسري في جسدك رعدة خفيفة، وتنطلق مشاعرك مع هذا الصوت الذي أطبق على مسامعك وكأنك لا تسمع سواه، ويستمر هذا الصوت...

گال الي يزور حسين   اله مهما يكن ظرفه
عليه مية ذهب يدفع   رسم زيارته يكلفه
انطينه وكل فرد منا   يشعر بعده ما وفه
رد گال اليزور حسين   من ايده ينگطع جفه
انطينه اجفوفنا بالحال   واجينه نزورك بلهفه
ما يمنعنه عنك خوف   گطعوا من ادينه جفوف
من الالم ما صحنه   صحنا بيك آمنا

ويرتسم أمامك هذا الإيمان الذي لا مثيل له، وهذه العقيدة الراسخة رسوخ الجبال، وحينها لا تقوى على حبس دمعة تنساب من أهداب العيون من دون إرادة منك، فتلجأ إلى تجفيفها دون جدوى لأن غيرها تحل محلها، وحينها تشعر بحجم المأساة التي مر بها الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته، وما يمر به أتباعه وشيعته من بعده.

وفي منتصف اليوم العاشر من المحرم في مدينة كربلاء من كل عام، حيث وقف الإمام الحسين في مثل هذا اليوم من سنة (٦١هـ) وحيداً بين أجساد أهل بيته وأنصاره، وهو يراهم مجدلين على الرمضاء، يناديهم فلا يجيبون، ويدعوهم فلا يسمعون، ثم يطلق صرخته التي اهتزت لها أركان السموات والأرض، ودخلت كل بيت وسمعها أهل السموات والأرض، وردد صداها كل حجر ومدر الا هؤلاء القوم الذين استحوذ عليهم الشيطان، تلك الصرخة التي ظل صداها يتردد كل عام في العاشر من محرم:

«أما من مغيث يغيثنا، أما من ناصر ينصرنا، أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله».

في مثل هذا اليوم من كل عام يجتمع آلاف الرجال من الشيوخ والشباب في منطقة باب طويريج، ليؤدوا إحدى الشعائر الحسينية المعروفة بـ(ركضة طويريج)، وكأن هذا النداء الذي أطلقه الإمام الحسين حين وقف وحيداً في طف كربلاء، قد دخل مسامع هذه الجموع المحتشدة من الرجال، فهبت لنصرة سيدها وإمامها. وتنطلق هذه الجموع من شيوخ وكهول وشباب وأطفال وقد تلفعت بالسواد، وشدت رؤوسها بالعصائب في أعظم ماراثون سوف يخلده التاريخ، وتتوارثه الأجيال إلى يوم الدين، وتمر هذه الجموع في شارع اصطفت على جانبيه ملايين البشر، وهي تهدر «لبيك يا حسين، لبيك يا حسين» حتى تصل إلى ضريح الإمام الحسين (عليه السلام)، وهي تعلن بيعتها وولاءها واستعدادها لنصرة الإمام (عليه السلام) وحين تدخل هذه الجموع الصحن الشريف ترتفع أصواتها بالبكاء تعبيراً عن الحزن والألم على ما جرى من مآس على الإمام الحسين وأهل بيته، تدخل الصحن الشريف، ولسان حالها يقول:

يا شهيد الطفوف جئناك نسعى ودموع العيون تحكي الفجيعه

يا شهيد الطفوف جئناك نسعى ونزيف الجراح يجري نجيعه

وقد يطول الكلام اذا أردنا الحديث عما يبذله أتباع أهل البيت في هذا الشهر، لأنه خارج عند حدود الوصف، ويكفي أن أقول ما من بيت من بيوتهم الا ويبذل كل ما يستطيع بذله، فلا بخل في هذه المناسبة بمال ولا بنفس إنما الكرم والإيثار والتضحية صفة الجميع، فمن أجل الحسين يبذل كل غال ونفيس ومن أجل الحسين ينذر أبناء المدينة أنفسهم لخدمة ضيوف الحسين وزواره، ومن أجل الحسين يبذل الطعام والشراب في الساحات والشوارع والبيوت، ومن أجل الحسين يضحي أبناء المدينة بأعمالهم

وراحتهم ويجندون أنفسهم لخدمة الوافدين إلى هذه المدينة المقدسة، ويستمر هذا حتى شهر صفر حيث تبدأ مرحلة جديدة في طريق النهضة الحسينية الخالدة.

٢ـ شهر صفر

شهر صفر من الأشهر الحرم أيضاً وفي هذا الشهر تحل أربعينية الإمام الحسين، وفيه رجوع السبايا من عيال الحسين إلى كربلاء ثم المدينة، وفيه نعي الإمام الحسين إلى أهل المدينة على لسان بشر بن حذلم.

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرج ... والرأس منه على القناة يدار

ولم يبق بيت من بيوت مدينة الرسول إلا دخله نعي الإمام الحسين، فتوشحت المدينة بالسواد، وعم الحزن أهلها لفقد ابن بنت نبيهم.

وفي هذا الشهر شد الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري الرحال إلى كربلاء لزيارة قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، وصادف ذلك عودة السبايا من الشام إلى كربلاء وقد أصبح هذا تقليداً عند أتباع أهل البيت، وحين يحل شهر صفر من كل عام تشد الملايين الرحال من كل أنحاء العراق، ومن خارجه، تطوي المسافات وتقطع مئات الكيلومترات سيراً على الأقدام باتجاه كربلاء، ولا يمكن لأي مبدع أن يرسم صورة كاملة الابعاد لما يحدث في هذه المناسبة، لأن ما يحدث اكبر من الوصف وفوق حدود التصور.

على مد البصر وأبعد منه تقام السرادقات والحسينيات والمواكب على الطرق المؤدية إلى كربلاء من أقصى نقطة في جنوب العراق إلى أقصى نقطة في شماله، ومن شرقه إلى غربه، غابات من الأعلام بألوانها المختلفة وشعاراتها المعبرة تمتد على الطرق المؤدية إلى مدينة كربلاء، مئات الآلاف من الشباب والشيوخ والأطفال والنساء تركوا

أعمالهم وهجروا منازلهم وجندوا أنفسهم لخدمة زوار الحسين بهذه المناسبة، البيوت والجوامع والحسينيات فتحت أبوابها مثلما فتح أهلها قلوبهم لاستقبال زوار الحسين، وتقديم ما يحتاجون إليه من خدمات.

ملايين الدنانير تبذل عن طيب نفس لخدمة الوافدين إلى المدينة، الدولة تستنفر كل مؤسساتها الصحية والأمنية والخدمية لحماية زوار الحسين ورعايتهم، كل فرد يبذل ما يستطيع بذله في هذه المناسبة، لكي تظل حية تتوارثها الأجيال على مر العصور.

وحين تدخل مدينة كربلاء المقدسة التي تعيش في مثل هذه الأيام أكبر كرنفال للحزن عرفه تاريخ الإنسانية، نجد أنها قد استنفرت كل طاقاتها حكومة ودوائر وسكاناً لاستقبال الملايين الزاحفة إليها من كل حدب وصوب لاحياء أربعينية الإمام الحسين (عليه السلام)، ولا تكاد تجد شارعاً أو زقاقاً أو ساحة يخلو من موكب أقيم لخدمة زوار الحسين، ولا نجد بيتاً من بيوت أهلها الا فتح أبوابه واستعد لخدمة الوافدين إلى مدينة الحسين، هذا فضلاً عن مواكب المدن والمحافظات والعشائر والمؤسسات الدينية والمدنية والأحزاب التي أصبحت لها أماكن ثابتة تقيم فيها مواكبها كل عام، أما سماء المدينة فقد ازدحمت فيها الأعلام واللافتات التي تحمل الشعارات الحزينة حتى يخيل إلى الناظر أنه يرى غابات من الأعلام ترتفع في سماء هذه المدينة، وتختلط مع الأصوات التي تنبعث من مكبرات الصوت في المنارات والجوامع والحسينيات والمواكب، وهي تندب مصيبة الإمام الحسين، وجوه الناس في كربلاء وشيوخهم تطوعوا لتقديم خدماتهم لضيوف مدينتهم من أبناء المدن الاخرى.

أما زوار الإمام الحسين في هذه المناسبة فأمر خارج عن حدود الوصف! شلالات من البشر تتدفق نحو مدينة كربلاء، ملايين من البشر تزحف مشياً على الأقدام نحو قبر الحسين من كل الطرق المؤدية إلى مدينة كربلاء، شيوخ ونساء وشباب وأطفال، مرضى

وأصحاء، أطفال رضع، وقد شدوا المآزر وعصبوا الرؤوس وحملوا الأعلام وهيأوا أنفسهم لقطع مئات الكيلومترات مشياً على الأقدام، ليصلوا مدينة كربلاء وضريح الإمام الحسين حيث تنتهي رحلتهم بعد أداء مراسم الزيارة وتجديد عهد الولاء، قدموا كربلاء ولسان كل منهم يقول:

قدمت وعفوك عن مقدمي أسيراً كسيراً حسيراً ظمي
فمذ كنت طفلاً عرفت الحسين ملاذاً بأسواره أحتمي
ومذ كنت طفلاً عرفت الحسين رضاعاً وللآن لم أُفطمِ

نعم هكذا عرفنا الحسين، ولم نفطم من حبه، وعلى هذا المبدأ قَدِمت هذه الملايين إلى سيدها وامامها، يحدوها الأمل أن تفي بشيء مما في أعناقها من دين لهذا الرجل الذي قدم نفسه ومن معه قرباناً، لإنقاذ دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من الإغراق والانحراف والفساد، وانقاذ البشرية من العبودية والظلم والاضطهاد، حتى أصبح رمزاً لكل المظلومين في هذا العالم، نعم تصل هذه الملايين من الأجساد التي أنهكها طول المسير وأدمت أقدامها المسافات، فتورمت الاقدام وتمزقت الاعصاب، تصل إلى كربلاء وتدخل ضريح الإمام الحسين، فيزول ما بها من تعب المسير وعنائه، وتعود سليمة كأنها لم تقطع تلك المسافات الطويلة سيراً على الأقدام، إنها بركات الإمام الحسين.

وتكتمل هذه الصورة الرائعة وتأخذ أبعادها بنزول مواكب العزاء بانواعها المختلفة إلى الأضرحة المقدسة، على وفق تنظيم دقيق لا مثيل له في مثل هذه المناسبات الكبيرة.

تنزل هذه المواكب من أماكن إقامتها في توقيتات محددة باتجاه ضريح الإمام الحسين وأخيه العباس (عليهما السلام)، وهي تمثل المدن والعشائر والمؤسسات، تنزل هذه المواكب وهي تحمل الأعلام والشعارات التي تميزها وتشير إلى هويتها، وتأخذ

مساراً محدداً حتى تصل إلى الأضرحة المقدسة، ويكون نزولها بحسب ترتيب تحدده الهيأة المسؤولة عن هذا الأمر،تنزل وهي تردد شعارات تعبر عن آرائها في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية والوضع العام للدولة، يرددونها بكل حرية دون أن يعترضهم أحد، فهم في ضيافة سيد الشهداء، وإذا كانت مدينة مثل مدينة مكة المكرمة على سعتها، تضيق بثلاثة ملايين حاج يقصدون بيت الله الحرام في موسم الحج؛ فإن مدينة كربلاء يدخلها أكثر من عشرة ملايين زائر؛ من داخل العراق وخارجه؛ في أربعينية الإمام الحسين، يحلون فيها أهلاً وينزلون سهلاً، يجدون بيوتاً فتحت أبوابها وسرادقات أُقيمت في كل مكان، وجوامع وحسينيات هُيئت لخدمة زوار الحسين، ويفتح أهل هذه المدينة قلوبهم لاستقبال الوافدين إلى هذه المدينة، وينذرون أنفسهم لخدمتهم، ويتم في مثل هذه الأيام من كل عام إحياء أعظم كرنفال للحزن في تاريخ الإنسانية في مختلف عصورها، يتم فيه استذكار مأساة الإمام الحسين وأهل بيته، هذه المأساة التي ظلت حية متجددة منذ القرن الأول للهجرة إلى يومنا هذا، وسوف تظل حية إلى يوم القيامة، وسيبقى الإمام الحسين خالداً في قلوبنا ونفوسنا وحياتنا، وسوف يبقى ذكر الإمام الحسين حياً خالداً ما دامت الحياة، إنها إرادة الله وسره في الإمام الحسين.

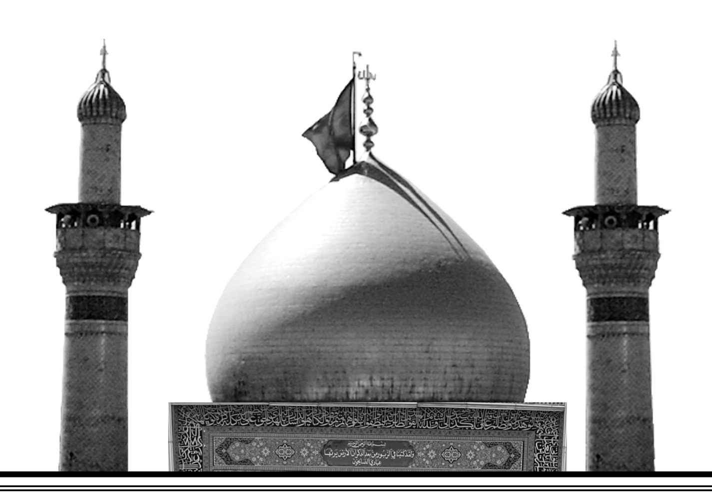
وتمضي الدهور ويبقى الحسين ... شهيداً تكفنه الذاريات
وتمضي العصور ويبقى الحسين ... قتيلاً تقطعه الباترات
وتمضي السنين ويبقى الحسين ... طريحاً تهشمه الصافنات
وتمضي القرون ويبقى الحسين ... صريعاً تغسله الدامعات
وتمضي الحياة ويبقى الحسين ... مسجّىً تقام عليه الصلاة
ويمضي الطغاة ويبقى الحسين ... مناراً به تهتدي الكائنات

ويمـضي الزمـان ويبقـى الحـسين	وصــرخته تـصنع المعجـزات
فمـذ كنـت طفـلاً عرفـت الحـسين[(١)]	مـلاذاً بـه تحتمـي الكائنـات
ومـذ كنـت طفـلاً عرفـت الحـسين	عظيمـاً يهـد عـروش الطغـاة
ومـذ كنـت طفـلاً عرفـت الحـسين	مـزاراً تقدسـه الكائنـات
سـلامٌ عليـك أيـا سـيدي	تـسطره أحـرفي العاثـرات
سـلامٌ عليـك أيـا سـيدي	تـسطره أنملـي الراجفـات
سـلامٌ عليـك أيـا سـيدي	تـسطره أدمعـي الجاريـات
فكـن حاضـري حـين تمـضي الحيـاة	وكـن شـافعي حـين يـدنو الممـات

نعـم سـلام لـك يـا سـيدي تـردده كـل قطـرة مـن قطـرات الـدماء الـتي تجـري في أجسامنا، سلام لك يا سيدي تـردده الكائنـات في هـذه الأرض، سـلام لـك يـا سـيدي تردده كل دمعة حزن في أهـداب العيـون سـلام لـك يـا سـيدي، وأشـهد أنـك خالـد في قلوبنـا خلـود الـسماوات والأرض، وراسـخ حبـك في نفوسـنا رسـوخ الجبـال، وسـلام عليك يوم ولدت ويوم استشهدت ويوم تبعـث حيـاً، وسـلام علـى أهـل بيتـك وعلـى أنصارك إلى يوم الدين، وأشهد أنكم قاتلتم في سبيل الله، وقُتلتم في سبيله، فأنتم أحياء عند ربكم ترزقون.

---

(١) من قصيدة للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد.



الفصل الأول

روافد الخطاب الحسيني

مدخل

الإمام الحسين (عليه السلام) سليل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي، جده رسول الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أفصح من نطق بالضاد، وقد أنزل الله عليه القرآن الكريم الذي يمثل أفصح نص عرفته العربية في تاريخها على الإطلاق، وقد حفظها الله به وحفظه بها، فكان كتابها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه محفوظ بإرادة الله وهو معجزة الرسول، قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الحجر / ٩.

وأبوه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وارث علم الرسول وباب مدينة العلم، وإمام البلغاء وسيد الخطباء بلا منازع وصاحب نهج البلاغة أفصح نص عربي بعد كتاب الله وكلام رسوله، وفيه من بلاغة القول وفصاحة الألفاظ وتنوع الأساليب ما يعجز عنه البشر، وأمه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ورثت البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الخطاب من أبيها.

لقد حمل الإمام الحسن والإمام الحسين هذا الإرث العظيم من بلاغة القول وفصاحة اللسان وقوة التعبير عن جدهما وأبيهما.

ومن هذا الإرث الثقافي العظيم ينطلق الإمام الحسين في خطابه، فهو من أعظم خطباء عصره، ومن أكثرهم قدرة على اختيار الألفاظ ونظمها، وهو يتّكئ في منطلقاته الأساسية على إرث بلاغي قل أن نجد نظيراً له بين أبناء عصره.

لقد تمثل القرآن الكريم وأتقن أسلوبه وطرق تعبيره، وحفظ نصه، وأحاط بكل صغيرة وكبيرة فيه من وجوه الإعجاز والتصرف بالألفاظ، وكان معلمه الأول في هذا الميدان جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأباه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفضلاً عن ذلك فقد أحاط علماً بكلام جده وأحاديثه، وتمثل ما ورد فيها من أحكام وأوامر ونواهٍ، لأنها تمثل المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن، وكذلك تمثل كلام أبيه في خطابه ورسائله إلى ولاته وقادته وعماله وأعدائه، وأتقن ما ورد فيها من طرق التعبير وفنونه، وكان على قدر كبير من العلم بكلام العرب وأيامها وأنسابها وطرق تعبيرها في نثرها وشعرها.

إن هذا الإرث الثقافي العظيم هو الذي مثل بنية الخطاب الحسيني، وقد استمد الإمام الحسين منه كثيراً من الأفكار والدلالات للتعبير عن أهداف ثورته ضد الظلم وإقامة الحجة على القوم الذين يوجه إليهم خطابه في مختلف مراحل هذا الخطاب، وقد بدا أثر القرآن وحديث الرسول واضحاً في بنية هذا الخطاب بدءاً من مغادرة مدينة جده رسول الله إلى مكة المكرمة، ثم إلى كربلاء حيث جرت معركة الطف وانتهت باستشهاد الإمام ومن معه. وسوف نوجز القول في أهم روافد الخطاب الحسيني.

١ـ القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على رسوله، وتحدى به العرب فأعجزهم بالرغم من كونهم أرباب البلاغة وفرسان الفصاحة، وقد بهرهم ما سمعوا من أسلوب القرآن وطرق نظمه، فأصبح معجزة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد ترك أثراً كبيراً في حياة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها، وقد دأب الخطباء والأدباء والشعراء على تضمين نصوصهم من آياته وألفاظه وتراكيبه بنصها أو بمعناها؛ لما يتركه ذلك من أثر كبير في نفوس السامعين، وقد زين هؤلاء كلامهم

بآياته وأمثاله وصوره، وأفادوا منه في تصوير المشاهد وتقريبها إلى الأذهان وإعطائها صيغة التجدد والحيوية[١].

والإمام الحسين مثل غيره من الخطباء الذين يدافعون عن قضية أمة ومصير عقيدة، ويقفون في وجه الظلم والاستبداد، يريد أن يكون لخطابه أثر في نفوس القوم الذين يوجه إليهم خطابه، لذا نجده يلجأ كثيراً إلى النص القرآني فيوظفه في أكثر من صورة، فهو أحياناً ينثر الألفاظ القرآنية والتراكيب في عباراته التي يصوغ بها خطابه، فتدخل هذه الألفاظ والتراكيب بنية الخطاب؛ لتزيده قوة وثباتاً وتأثيراً في نفوس السامعين، ويستطيع القارئ أن يتلمس بيسر أثر الألفاظ القرآنية في بنية الخطاب الحسيني.

ويمكن أن نمثل لما ذكرناه بما ورد في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية والمسلمين حين أراد مغادرة مدينة جده إلى مكة المكرمة، بعد حديثه مع واليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وما جرى في ذلك المجلس من كلام، يقول الإمام:

«وإنّ الجنة حق والنار حق والساعة آتية لا ريب فيها وإنّ الله يبعث من في القبور»[٢].

يتضح من هذا المقطع غلبة الألفاظ القرآنية على بنية الخطاب، بل يمكن القول: إن الخطاب في أساسه بني على فكرة قرآنية هي الثواب والعقاب وقيام الساعة وبعث من في القبور، وقد عبر الإمام عن هذه الفكرة بألفاظ (**الجنة ـ النار ـ الساعة ـ يبعث ـ القبور**)، وهذه كلها ألفاظ قرآنية تعبر عن فكرة الثواب والعقاب التي هي مبدأ من مبادئ الدين الإسلامي.

---

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ١٨.

(٢) مقتل الإمام الحسين، المقرم / ١٧٤.

وحين عزم الإمام الحسين (عليه السلام) الخروج من مكة إلى العراق، وجه خطاباً إلى المسلمين بناه على الفكرة القرآنية في حتمية الموت وزوال الدنيا، وقد ضمن خطابه طائفة من أسماء الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم «**آدم ـ يوسف ـ يعقوب**» يقول:

«خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع انا لاقيه»[١].

ولا يخفى ما في هذا النص من تأثر واضح بأسلوب القرآن الكريم وألفاظه، ويمكن القول: إن ما ورد في هذا الخطاب بني على فكرة قرآنية، وعبر عنها بألفاظ قرآنية.

وحين نزل الإمام في كربلاء، وواجه الجيوش التي أعدت لقتاله، وعلم بنية القوم في قتله، وأراد أن يلقي عليهم الحجة نجده يلجأ إلى التعبيرات القرآنية لينثرها في خطابه، ليكون أكثر تأثيراً في نفوس السامعين وعقولهم وفيهم من قرأ القرآن واطلع على آياته وتأثر بها، يقول:

«لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم وما تريدون، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، هؤلاء قوم قد كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين»[٢].

واضح من النص المتقدم أن الألفاظ القرآنية تهيمن على بنية هذا الخطاب، بل يمكن القول: إن الخطاب كله بني على الألفاظ القرآنية، وغرض الإمام من بناء خطابه على كثير من ألفاظ القرآن هو زيادة التأثير في نفوس هؤلاء القوم، لأن الألفاظ القرآنية لها أثر عجيب في السامعين، ومن هنا فقد حشد الإمام طائفة من التعبيرات القرآنية في كلامه «**استحوذ عليكم الشيطان ـ أنساكم ذكر الله ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ هؤلاء**

---

(١) مقتل الإمام الحسين، المقرم / ١٧٣.

(٢) تاريخ الطبري ٥ / ٤٢٤.

قوم قد كفروا ـ بعداً للقوم الظالمين»، كل هذه التعبيرات تمثل صوراً اقتطعت من آيات قرآنية، ودخلت في بناء الخطاب الذي وجهه الإمام إلى أهل الكوفة لعلهم يتذكرون.

وقد يسلك الإمام اسلوباً آخر في توظيف النص القرآني؛ اذ نجده يقتبس آيات بنصها ويدخلها في سياق خطبه ورسائله، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من تأثير في نفوس السامعين، ذلك أن آيات القرآن الكريم التي يختارها الإمام ويدخلها في سياق خطابه يكون لها تأثير كبير في السامعين قال (عليه السلام):

«وإنْ لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يونس / ٧١. ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الاعراف / ١٩٦»[1].

لقد استحضر الإمام الحسين في هذا النص من خلال الآيات التي أدخلها في سياق كلامه حالة نبي الله نوح مع قومه الظالمين، ليشير إلى النهاية التي تنتظر هؤلاء القوم اذا استمروا في ما هم عليه من الضلال، وهي شبيهة بنهاية قوم نوح الذين أهلكهم الله بظلمهم موضحاً أن الله سوف يتولى الصالحين من عباده في إشارة إلى إنقاذ الله نبيه نوحاً يقول أحد الباحثين:

«صور المنشئ حالة القوم والموقف القائم من خلال استدعاء الحقائق التاريخية التي وثقها القرآن وصورها؛ إذ تتحدث الآيات عن نبأ نوح ومعارضته قومه الشديدة»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٤٢٥.

(٢) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ٢٤.

لقد شهد نبي الله نوح الموقف نفسه، فصمد أمام قومه الكافرين بشجاعة وواجه إصرارهم على الكفر بحزم مع قلة أنصاره حتى جاء نصر الله، وهي الرسالة التي أراد الإمام الحسين إيصالها إلى أسماع هؤلاء القوم، ليبين لهم من خلالها أن الله سوف ينصره ويخلده مثلما نصر نوحاً، وأهلك قومه الكافرين، وفي آخر خطاب له في كربلاء حين عرف عزم القوم على قتله وإصرارهم على تنفيذ أوامر أسيادهم الظالمين، وضع أمامهم النهاية التي تنتظرهم بعد قتله، ليكونوا على بينة من أمرهم ويعرفوا النهاية السوداء التي تنتظرهم، وبين لهم استعداده ومن معه للقتال ودعاهم إلى مواجهته محتجاً عليهم بآيات من القرآن الكريم قال (عليه السلام):

«أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى، وتقلق بكم قلق المحور عهد عهده إليّ أبي عن جدي.

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يونس/٧١، ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ هود/٥٥)[1].

لقد اقتبس الإمام الآيتين لأنهما تمثلان وضعاً مشتركاً في نهاية القوم الظالمين، فالآية الأولى تمثل نهاية قوم نوح، والآية الثانية تمثل نهاية قوم هود، وقد وعد الإمام هؤلاء القوم بنهاية وشيكة الحدوث مشابهة لنهاية الظالمين من قوم نوح وقوم هود، انها دعوة صادقة، ووعد صادق، وهكذا كانت نهاية القوم الذين اشتركوا في قتل الإمام الحسين (عليه السلام)، فلم يلبثوا طويلاً بعد مقتله كما وعدهم، وسرعان ما دارت بهم الدنيا ولم يحصلوا على شيء مما طمعوا فيه، وخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، لقد سلط الله عليهم من يقتلهم جميعاً، ويلعنهم الله والملائكة والناس والتاريخ، وستظل هذه اللعنة تلاحقهم مدى الحياة، وهذا هو

(١) مقتل الخوارزمي ٢ / ٩.

الإمام الحسين ما زال خالداً على كل لسان وبيان وسيبقى خالداً إلى يوم الدين، وشتان ما بين النهايتين.

ويمكن أن نجد مثل هذا في مواضع أخرى من خطاب الإمام الحسين.

إن ما تقدم يمثل شواهد من توظيف الإمام الحسين للنص القرآني في خطابه، وإفادته منه في أساليب نظمه وطرق تعبيره في بناء خطابه الذي خاطب به القوم المحتشدين لقتاله، لكي يلقي عليهم حجته ويبين لهم سبيل الهدى والرشاد، ويبصرهم بما غفلوا عنه، ويوضح لهم النهاية التي تنتظرهم بعد قتله، لكنهم صموا آذانهم أمام نداء الحق ولم يسمعوا النصيحة، لقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وذكر الآخرة، فكانت نهايتهم أن خسروا الدنيا والآخرة، وباءوا بغضب الله وسخطه، وظلت لعنة الله تلاحقهم منذ القرن الأول للهجرة وستبقى إلى يوم القيامة.

٢ـ الحديث النبوي الشريف

الحديث النبوي الشريف هو كلام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لا ينطق عن الهوى انما هو وحي يوحى، ويعد الحديث مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، ويأتي بالدرجة الثانية من حيث الفصاحة بعد القرآن الكريم، فالرسول الكريم أفصح من نطق بالضاد، وقد ترك لنا ثروة هائلة من الأحاديث في مختلف ميادين الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية نقلها الينا عدد من الصحابة والتابعين، وقد أصبح الحديث النبوي مصدراً من مصادر الدراسات والتشريع، وقد أفاد منه الخطباء والشعراء والأدباء في خطبهم وأشعارهم، وقد نص القرآن الكريم في كثير من آياته على إطاعة الرسول، وقرن طاعته بطاعة الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كان الحديث النبوي وسيلة من وسائل الاحتجاج عند من يريد بيان رأي ودفاعاً عن فكرة أو عقيدة، وقد أفادت منه كثير من الفرق الكلامية في الساحة الإسلامية في الدفاع عن معتقداتها وأفكارها.

والإمام الحسين (عليه السلام) في ثورته ضد الظلم والطغيان جعل من الرسول وحديثه مرتكزاً من أهم مرتكزات هذه الثورة، واتخذ منه وسيلة من وسائل الاحتجاج على القوم وإيضاح الحق من الباطل، ويمكن أن نلحظ ذلك في جانبين:

الأول

اقتباس أحاديث الرسول بنصها أو بمعناها وإدخالها في بنية خطابه، لأن السنة تمثل جانباً من جوانب التشريع الإسلامي، وما ورد منها في كلام الرسول يعد الالتزام به واجباً شرعياً على المسلم، وقد أشار أحد الباحثين إلى هذه المسألة بقوله:

«لا يرد إلا في المواقف التي يتطلب فيها إظهار الحجة والبرهان، والقصدية في ظلم حق أهل البيت وإنكاره واضحة عند الأُمويين»[(١)].

ويبدو من هذا أن الإمام الحسين يستعمل الحديث النبوي في مواقف محددة يريد من خلالها إثبات حق أهل البيت في تولي أمور المسلمين، وبيان الظلم الذي تعرضوا له، والطريقة التي اغتصب فيها هذا الحق، يقول الإمام الحسين في خطبة له أمام القوم في كربلاء:

«أيها الناس إن رسول الله قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»[(٢)].

ويبدو واضحاً من نص هذا الحديث أن الإمام الحسين أراد من الاحتجاج به إثبات حقيقة لا تقبل الشك هي مسؤوليته تجاه الأمة في ظل حكم جائر، لأن قول

---

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ٣٣.

(٢) أمالي الشيخ المفيد / ٢٢، الفتوح المكية ٥ / ١٤٣.

الرسول يسوغ الثورة ضد الحاكم الظالم الفاسق الذي تعدى حدود الله، وحكم بغير ما أنزل الله، فالإمام الحسين وارث النبي وهو صاحب الحق في تولي قيادة الأمة وهو أول المعنيين بهذا الحديث[1].

ومن صور احتجاجه بالحديث النبوي ما ورد في خطابه بين المعسكرين، وحديثه مع جيش عمر بن سعد قبل أن يبدأ القتال، قال:

«أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لي ولأخي:

(هذان سيدا شباب أهل الجنة).

فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق، فو الله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله...»[2].

إن الإمام الحسين أراد من الاحتجاج بهذا الحديث تذكير القوم بالمكانة الكبيرة له ولأخيه الحسن عند الله ورسوله، فهما سيدا شباب أهل الجنة، وهما إمامان إن قاما وإن قعدا، وطاعتهم مفترضة، ولا شك ان هؤلاء القوم يعرفون ذلك حقاً وصدقاً وبينهم من سمع ذلك من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لقد أراد الإمام من هذا إلقاء الحجة على هؤلاء القوم، وأراد أن يبين لهم أن ما يريدون الإقدام عليه عمل يغضب الله ورسوله، وهو يريدهم أن يقرروا بأنفسهم حقيقة هذا الكلام وصدقه، لذا أحالهم على جماعة من الصحابة سمعوا هذا الحديث من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا يتبادر إلى الذهن أن الإمام الحسين يريد من هذا استعطافهم ليتركوه، فهو يعرف المصير الذي ينتظره حين قدم إلى العراق.

---

(١) ينظر التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ٣٣.

(٢) سنن التمذي ٤ / ٤٩٦، وينظر الكامل في التاريخ ٣ / ٢٨٧.

وإذا تجاوزنا نقل الحديث بنصه في سياق الخطاب الحسيني نجده يفيد من الحديث بصورة أخرى غير النقل النصي، هي الإفادة من دلالة الحديث ومعناه وألفاظه، ونشر هذه الدلالة في بنية الخطاب ومن أمثلة ذلك ما ورد في قوله (عليه السلام):

«فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم ـ أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول ثم انكم زحفتم إلى ذريته تريدون قتلهم»[(١)].

ولا يخفى أن في هذا النص إشارة إلى حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[(٢)].

وقد يستعير الإمام صورة وردت في الحديث النبوي الشريف أو في كلام أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، ليذكّر بها القوم ويعظهم بها، ومما يمثل ذلك صورة الدنيا وزوالها يقول:

«انه نزل من الامر ما قد ترون وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت حذاء، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل»[(٣)].

وهذه الصورة التي رسمها الإمام للدنيا ليتعظ بها هؤلاء القوم الذين باعوا كل شيء من أجلها تمتد جذورها إلى ما وصف به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين حال الدنيا فقد تكرر الحديث عنها في حديث الرسول وفي نهج البلاغة[(٤)]، ومن ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

---

(١) بحار الأنوار ٢ / ٤٥، مقتل الخوارزمي ٢ / ٣٥٧.

(٢) مسند أحمد ٣ / ١٨.

(٣) مقتل الخوارزمي ٢ / ٢٣٥.

(٤) ينظر نهج البلاغة / ٤٣٢.

«أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها الا صبابة كصبابة الإناء»[١].

وفضلاً عن حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد أفاد الإمام الحسين (عليه السلام) من كلام أبيه وخطبه ورسائله، فقد درس في مدرسة أبيه وتعلم منه البلاغة والفصاحة وورث منه علمه وبلاغته فالإمام علي (عليه السلام) باب مدينة العلم وهو القائل: سلوني قبل أن تفقدوني، وقد تضمن خطاب الإمام الحسين صوراً من الإرث الأدبي الذي ورد في خطب الإمام ورسائله إلى ولاته وأعدائه، ويمكن القول: إن أقوال أمير المؤمنين والإمام الحسن وسيدة نساء العالمين كلها مثلت مصدراً من مصادر الخطاب الحسيني، وكل هؤلاء قد نهلوا من مدرسة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)وتعلموا على يديه.

الثاني

الافادة من شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالإمام الحسين أفاد من شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في إلقاء الحجة على القوم الذين احتشدوا لقتاله واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم كل شيء حتى تنكروا لصلته برسول الله، وقد عمد الإمام إلى تذكيرهم بأنّه وارث الرسول، وهو الإمام المفترض الطاعة بحكم هذه الوراثة وهو صاحب الحق في ولاية أمور الأمة، وكان حين يخرج لمخاطبة القوم ووعظهم يلبس عمامة الرسول، ويتقلد سيفه ويركب جواده ليرسم أمامهم صورة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويذكرهم بأنه الوارث الشرعي لجده رسول الله وهو المؤهل لقيادة الأمة، وهو يؤكد في كثير من مواضع خطابه على صلته برسول الله وقرابته منه، ليعرف من لم يعرف ويسمع من لم يسمع بان

(١) مسند أحمد ٤ / ٢١٤.

هذا الذي يخاطبهم هو إمام عصره وهو ابن بنت رسول الله وابن وصيه، وهو الإمام المفترض الطاعة يقول:

«أمّا بعد؛ فانسبوني فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله... أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أو ليس جعفر الطيار ذو الجناحين عمي»[(١)].

إنّ الإمام حين طلب منهم أن ينسبوه، لا يعني انه غريب عنهم وهم لا يعرفونه، فهم يعرفون عنه كل شيء وبينهم كثير من الذين راسلوه وطلبوا منه القدوم، وهم يعرفون أنه الإمام المفترض الطاعة، كل ذلك معروف عندهم، إنما أراد الإمام من هذا تذكير هؤلاء القوم الذين أعماهم طمع الدنيا فأنساهم كل شيء، كما أراد إلقاء الحجة عليهم لكي يكونوا على بصيرة من أمرهم ويميزوا بين الحق والباطل، ويعرف من لا يعرف منهم حقيقة الأمر وسبب خروج الإمام وإعلان ثورته.

وفي ضوء هذا يمكن القول: إن شخصية الرسول الأعظم وصلة الإمام الحسين به كانت حاضرة في بنية الخطاب الحسيني شكلاً ومضموناً، ومثلما أفاد الإمام الحسين من كلام جده وأبيه في حواره مع القوم فقد أفاد من شخصية الرسول في هذا الحوار.

٣ـ كلام العرب

يعد كلام العرب من شعر ونثر مصدراً مهماً من مصادر النصوص الأدبية على اختلاف أنواعها سواء أكانت رسائل أم خطباً أم غيرها، وحين نطالع في نهج البلاغة مثلاً نجد الإمام علياً (عليه السلام) يضمّن خطبه ورسائله كثيراً من شعر العرب وأمثالهم والإفادة من هذا المورد يقتضي من المنشئ الإلمام بكلام العرب وأشعارها وأمثالها ليستطيع أن يختار منها ما يلائم المقام والحدث الذي يريد أن يتحدث فيه.

---

(١) الكامل في التاريخ ٢ / ٥٦١.

والإمام الحسين وارث ثقافة أدبية عظيمة تلقاها عن جده وأبيه، وهو على قدر كبير من الإلمام بما تحدثت به العرب من شعر ونثر،لذا نجده يضمِّن طائفة من خطبه ورسائله في معركة الطف نصوصاً من الشعر أو الأمثال بحسب ما يقتضيه مقام الحديث أو يتطلبه سياق الكلام، ويبدو ذلك واضحاً في خطابه مع الجيوش التي يقودها عمر بن سعد في كربلاء، يقول الإمام:

الا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون... ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، الا واني زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر) ثم تمثل بأبيات فروة بن مسيك[1].

فإن نَهزِم فهزّامون قدماً ... وإن نُهزَم فغير مهزَّمينا
وما إن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
اذا ما الموت رفع عن أناس ... كلا كله أَناخ بآخرينا
فلو خلد الملوك اذن خلدنا ... ولو بقي الكرام اذن بقينا
فقل للشامتين بنا أَفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

لقد استطاع الإمام الحسين أن يوظف هذه الأبيات التي قالها الشاعر في مقام معين في رسم الصورة الرائعة للموت الكريم والنتائج التي تنتهي بها المعارك، يقول أحد الباحثين:

«لقد أكد أن انتصار الحرب وخسرانها يتقاسمان المعركة، ولكن قد يأتي الانتصار مصحوباً بالحياة الذليلة، وقد يرد خسران المعركة وشعارها الحياة الخالدة، اما الموت فحقيقة شاملة خارج الإرادة الإنسانية ولكن الموت الكريم لا يخرج عن تلك الارادة، وهذا ما اكدته الأبيات وصورته»[2].

(١) تحف العقول عن آل الرسول / ٢٤١.

(٢) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ٤٤.

ويبدو قول الشاعر:

فقــل للــشامتين بنــا أفيقــوا ... ســيلقى الــشامتون كمــا لقينــا

منسجماً تماماً مع قول الإمام في الخطاب نفسه:

«اما والله لا تلبثون بعدها الا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى...»[١].

فقد أوضح الإمام من خلال تمثله بهذه الأبيات لهؤلاء القوم أنهم حين يفرحون بقتله الذي ينال به رضا الله ويكسب العزة والكرامة والخلود الأبدي، فإنهم سوف يلقون المصير نفسه وفي وقت قريب لكن نهاية موتهم تختلف عن نهاية موته؛ اذ إنه حين يموت يحظى برضا الله ورسوله ويخلده التاريخ في حين أنهم ينالون غضب الله والرسول وسوف يلعنهم الله والملائكة والناس وينساهم التاريخ وليس هذا الأمر ببعيد، وشتان ما بين النهايتين.

وفضلاً عن الشعر فقد أفاد الإمام الحسين من أمثال العرب، وقد وظفها الإمام في خطابه في أجمل صورة معبرة سواء أكان ذلك بنصها أم بمعناها.

لقد استحضر الإمام الحسين في خطابه المثل العربي نصاً ومعنى، لما له من تأثير في نفوس السامعين، وقدرة على تصوير الموقف بعبارة موجزة ومن أمثلة ذلك ما ورد في خطابه لأهل بيته وأنصاره حين أحاط به القوم وعزموا على قتاله قال:

«الا وإني قد أذِنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل مني ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً»[٢].

والعبارة الأخيرة من كلام الإمام «**اتخذوا الليل جملاً**» مثل يضرب لمن يطلب حاجته في الليل حتى ينالها[٣].

(١) مقتل الخوارزمي ٢ / ٦.

(٢) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٨٥.

(٣) مجمع الامثال ٢ / ٢٧٣.

لقد بين الإمام لأصحابه من خلال إيراد هذا المثل في سياق خطابه أن الليل ستر لمن أراد أن يذهب فيه وهو مثل الجمل في قدرته على حملهم الى بر الأمان بالرغم من الصعاب وخطورة الطريق[١].

وقد يستعمل الإمام الإشارة إلى دلالة المثل في سياق خطابه ويعبر عنه بألفاظ غير ألفاظه، ولكنها تؤدي ما يحمله هذا المثل من دلالة، ففي قوله الذي تقدم ذكره «**هيهات منا الذلة**» ترجمة لقول العرب «**المنية ولا الدنية**»، وهو مثل يضرب لمن يختار الموت العزيز على العيش الذليل[٢]، وقد تكرر هذا المعنى في خطاب آخر للإمام حين قال:

«**لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما**».

ويبدو واضحاً الانسجام التام بين هذا المثل الذي اختاره الإمام للتعبير عن موقف محدد، وبين الواقع الذي جسده الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره في واقعة الطف، فقد اختاروا جميعاً الموت العزيز على حياة الذل مع الظالمين، وهو تجسيد حي لمقولة الإمام التي تقدم ذكرها.

لقد ماتوا موتاً عزيزاً ظل امنية على لسان المؤمنين، ماتوا بعد أن سطروا أعظم ملحمة في التضحية والفداء دفاعاً عن العقيدة في تاريخ الإنسانية، ماتوا بعد أن أثبتوا أرجلهم في مستنقع الموت ولم يرفعوها الا وهم جثث هامدة، ماتوا بعد أن ماتت مضارب سيوفهم من الطعن، وكأن قول الشاعر يصدق على كل واحد منهم[٣].

فاثبت في مستنقع الموت رجله   وقال لها من تحت اخمصك
وما مات حتى مات مضرب   من الطعن واعتلت عليه القنا

---

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ٤٥.

(٢) مجمع الامثال ٣ / ٣١٦.

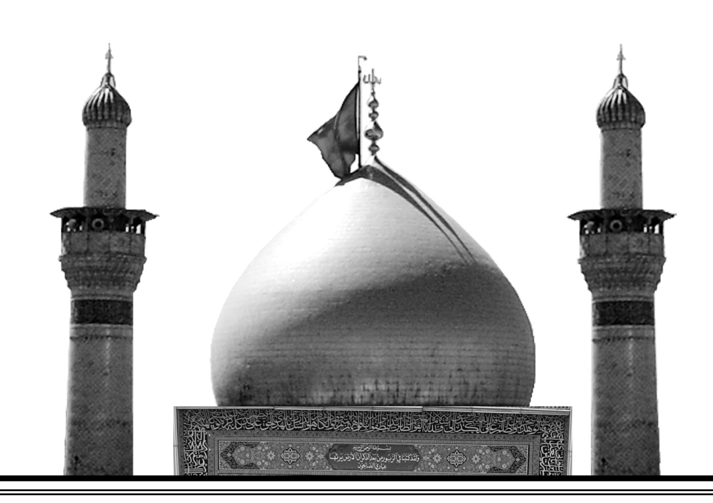
(٣) الشاعر ابو تمام حبيب بن اوس الطائي.

نعم لقد ماتوا دفاعاً عن الدين لكي يخلدهم الله والإنسانية والتاريخ، ماتوا لكي ينالوا هذه المكانة التي لا يمكن لأحد بعدهم أن ينالها حملوا أرواحهم على أكفهم وواجهوا الموت بصدور عارية لتوهب لهم الحياة، استشهدوا لكي يكونوا أحياء عند ربهم يرزقون، ماتوا ولسان حالهم يقول:

ساحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيض العدا

لقد عاشوا بعز وماتوا بعز وأصبحوا خالدين في كل زمان وعلى كل لسان.

أما أعداؤهم الذين اشتركوا في قتلهم فقد عاشوا بذل وماتوا بذل، ولم يلبثوا بعدهم الا قليلاً كما وعدهم الإمام في واحد من خطاباته، ماتوا بذل ولعنهم الله ورسوله والملائكة والناس أجمعون وقد أسدل عليهم التاريخ ستارة، وظلت لعنة قتل الحسين وأهل بيته تلاحقهم أينما ورد ذكرهم، وسلام على الحسين وعلى أبناء الحسين وعلى أصحاب الحسين ولعن الله اعداءهم ومن قتلهم إلى يوم الدين.



الفصل الثاني

الخطاب الحسيني في بلاد الحجاز

مدخل

الخطاب الحسيني في معركة الطف لم يكن على وتيرة واحدة في تراكيبه ودلالاته، إنما اتخذ منحى تصاعدياً في طبيعة الأسلوب وحشد الدلالات واختيار التراكيب التي تنسجم مع طبيعة الموقف وبحسب ما يقتضيه المقام الذي يقال فيه الخطاب، ذلك أن خطاب الإمام الحسين كما أرى لا يمكن أن يكون مرحلياً يمثل مرحلة تاريخية ينتهي بنهايتها، ويبقى محفوظاً في متون الكتب مثل غيره من خطابات القادة، إنما المراد منه أن يكون منهجاً لكل ثورة حق ضد باطل، وكل صرخة في وجه ظالم ومن هنا يكتسب خطاب الإمام الحسين ديمومته، ليكون مدرسة تتعلم فيها الأجيال كيف ينتصر الدم على السيف، وكيف ينتفض المظلوم ضد الظالم، أريد لهذا الخطاب أن يتعلم منه المسلمون وغيرهم أن النصر في المعركة ليس دائماً بالمعنى المادي.

لأن الإمام الحسين (عليه السلام) انتصر نصراً عظيماً بالرغم من كونه لم يكسب المعركة على الأرض، ويزيد انهزم انهزاماً لا مثيل له بالرغم من كسبه المعركة على الأرض، وخسر بعد هذه المعركة كل شيء وظلت تلاحقه هو وأعوانه لعنة الله والناس أجمعين، وها هو الحسين شامخ منذ أربعة عشر قرناً، وسيبقى ولا وجود لأعدائه ومن قتله.

إن الناظر في بنية الخطاب الحسيني يلاحظ اختلافاً واضحاً في بنية هذا الخطاب وتراكيبه اللغوية وأساليب التعبير التي استعملها الإمام للوصول إلى غاياته خلال المسيرة

التي قطعها ركب الإمام الحسين، ومن هنا برزت لدينا ثلاث مراحل اختلفت فيها طبيعة هذا الخطاب، وتنوعت الأساليب والتعبيرات التي بنى عليها الإمام خطابه في كل مرحلة وهذه المراحل هي:

١ . الخطاب الحسيني في بلاد الحجاز قبل المسير.

٢ . الخطاب الحسيني في أثناء المسير إلى كربلاء.

٣ . الخطاب الحسيني في أرض كربلاء.

وسوف أقوم بدراسة الخطاب الحسيني في كل مرحلة بفصل مستقل يتم من خلاله الكشف عن طبيعة هذا الخطاب وأهدافه ودلالاته، وإيضاح البنية اللغوية الافرادية والتركيبية، وبيان الأساليب التي استعملها الإمام في كل مرحلة ومدى تأثيرها على المتلقي والسامع، ذلك أن من أهم الأهداف التي يرمي إليها الخطباء هو التأثير بأكبر قدر ممكن في نفوس السامعين، ليتم من خلال ذلك الإقناع بما يقوله الخطيب وما يدعو إليه، وسوف نبدأ في هذا الفصل بدراسة الخطاب الحسيني في بلاد الحجاز.

الخطاب الحسيني قبل المسير

يمثل كلام الإمام في بلاد الحجاز (المدينة ومكة) المرحلة الأولى من مراحل الخطاب الحسيني، وحين ننظر إلى بنية هذا الخطاب سواء أكان في المدينة أم في مكة بعد خروجه إليها نجد انه يتمثل في اتجاهين:

الأول: هو الرفض القاطع لبيعة يزيد بعد هلاك معاوية.

الثاني: دعوة المسلمين إلى نصرة الحق ورفض الباطل.

والإمام الحسين حين يركز خطابه في هذين الاتجاهين ينطلق من فكرة واضحة هي؛ كونه صاحب حق اغتصب حقه أمام المسلمين جميعاً، ذلك أن في عقد البيعة

ليزيد نقضاً للعهد المبرم بين الإمام الحسن (عليه السلام) ومعاوية في الصلح المعقود بينهما أمام المسلمين كما هو معروف عند المؤرخين.

ومن أجل تحقيق هذا الغرض وإقناع السامعين به يتخذ أسلوب التعبير في الخطاب الحسيني أبعاداً مختلفة، ويستعمل الإمام أبنية وأساليب متغايرة، ليرسم من خلالها الصورة التي تؤثر في عقل المتلقي وقلبه، وحين ننعم النظر في تراكيب الخطاب في هذه المرحلة نجده أحياناً موجهاً إلى عقول السامعين، ليحفزها على التفكير والتمييز بين الحق والباطل، وأحياناً يوجه خطابه إلى العواطف ليستشيرها ضد الظلم والطغيان، وفي أحيان أخرى يركز على ثوابت الدين الإسلامي «**الحق، حتمية الموت، زوال الدنيا، الثواب، العقاب، الجنة، النار، البعث بعد الموت**» ومن هنا نجد الخطاب في هذه المرحلة يزدحم بالأساليب الإنشائية، ويكثر منها في بنية خطابه وتراكيبه، فالأمر والنهي والاستفهام والنداء والقسم والعرض وغيرها تهيمن على بنية الخطاب اللغوية، وتأخذ مساحة كبيرة من بناء الخطاب في هذه المرحلة وفي المراحل الأخرى.

ويمكن أن نلحظ في بنية الخطاب أن الإمام يستعمل أكثر التعبيرات تأثيراً في عقول المخاطبين وأسماعهم، وهو يلجأ إلى أسلوب الإقناع حيناً، وقد يستعمل أسلوب الحوار والمناقشة أو التهديد والتخويف من العواقب وهكذا، لذا تنوعت الأساليب التي يعبر بها الإمام عن أغراضه، وتداخلت في تراكيب خطابه الجمل الإسمية مع الجمل الفعلية والخبر مع الإنشاء، ليرسم من خلالها الصورة التي يريد إيصالها إلى السامعين، ومن هنا يمكن القول: إن بنية الخطاب الحسيني في مراحله المختلفة تتسع، لتشمل كل الأساليب المستعملة في لغة العرب من توكيد وقسم وتشبيه وشرط ومجاز وحقيقة واستعارة وكناية وتكرار وخبر وإنشاء وغيرها، وفيما يأتي عرض لخطاب الإمام الحسين في بلاد الحجاز.

١ـ خطاب الإمام الحسين في مجلس والي المدينة

يمثل هذا الخطاب لدينا أول خطاب بدأت به مسيرة الإمام الحسين في ثورته لتنتهي بمعركة الطف.

تشير الروايات إلى أن الإمام الحسين حين دعاه الوليد بن عتبة والي المدينة لم يأمن جانبه[١]، فجمع فتيانه ورجاله من بني هاشم وأمرهم بالوقوف عند باب الوالي، وقال لهم إذا سمعتم صوتي قد علا فادخلوا الدار، ودخل الإمام على الوالي فوجد عنده مروان بن الحكم، ونعى إليه الوليد معاوية وطلب منه البيعة ليزيد، وبعد حوارٍ جرى بينهما أقنعه الإمام أن بيعته لا يمكن أن تكون سراً، وحين يجتمع الناس سوف ينظر في الأمر، ولما أراد الإمام الانصراف تدخل مروان بن الحكم في الأمر وقال للوليد:

«والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع، لا قدرت على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه»[٢].

لقد أغضب هذا الكلام التحريضي الإمام الحسين، فنهض قائماً، وقال:

«يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله وأثمت»[٣].

هذا الكلام لا يجرؤ أحد غير الإمام الحسين أن يقوله في دار الأمير قاله الإمام الحسين، لأنه صاحب حق مغتصب يعرفه كل المسلمين، ولأنه يستند إلى ركن شديد هو مكانته من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لذا نراه يواصل كلامه:

«والله لو رام ذلك أحد من الناس لسقيت الأرض من دمه قبل ذلك»[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٣٣٩، مقتل الإمام الحسين، الخوارزمي ١ / ١٨٤.

(٢) البداية والنهاية ٨ / ١٥٨، أعيان الشيعة ١ / ٥٨٧.

(٣) الكامل في التاريخ ٢ / ٥٣٠.

(٤) مقتل الإمام الحسين الخوارزمي ١ / ١٨٤.

الناظر في بنية خطاب الإمام الحسين في هذا الموقف يجد أن طبيعة هذا الرد الغاضب تلائم المقام الذي قيل فيه ويشعر أن وراءه اسباباً ودوافع جعلت الإمام يبني خطابه في هذا الموقف على الأساليب الإنشائية ــ نداء فيه ذم موجع ــ استفهام فيه إنكار وسخرية، قسم عظيم بلفظ الجلالة وهكذا، إن تتابع هذه الأساليب فيه إيحاء بشدة الغضب وتعبير عن القوة، ذلك أن الأساليب الإنشائية أقدر في التعبير عن مثل هذه الحالات من الأساليب الخبرية.

والملاحظ أن الإمام استعمل تعبيراً خالف فيه المعروف في سياق القسم، فالشائع أن المقسم به يتقدم على المقسم عليه نقول: «**والله ما فعلت هذا**» لكن الإمام عدل عن هذا الأسلوب فقدم الفعل «**كذبت**» على المقسم به، لفظ الجلالة، والغرض من هذا التقديم هو إعطاء صفة الكذب عند هذا الرجل توكيداً لا يتحصل لو جرى التركيب على الأسلوب المعروف.

فهناك فرق بين قولنا: «والله كذبت»، وقولنا: «كذبت والله» ذلك أن مثل هذا التركيب يعطي صفة الكذب اهتماماً أكبر من خلال تقديمها، لأن العرب تقدم في كلامها الذي هو أهم[١].

ويوحي التعبير بهذا التركيب أن صفة الكذب طبيعة ملازمة لهذا الرجل وليس وضعاً حادثاً، وهذا هو الحق، لأن مروان ممن لعنهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفضلاً عما تقدم فإن تقديم الضمير «**انت**» على الفعل «**تقتلني**» وتسليط الاستفهام عليه بالهمزة المحذوفة وليس على الفعل له دلالة على أن المخاطب أبعد ما يكون عن تحقيق مثل هذا الأمر وفيه إظهار لعجزه عن مثل هذه الأمور، وتبدو فيه

(١) كتاب سيبويه ١ / ٢٢٣.

طبيعة الاستهانة بقدرة المخاطب واضحة، فالخطاب يقول للمخاطب: إنك غير قادر على تنفيذ مثل هذا المركب الصعب.

ثم يلتفت الإمام الحسين إلى الوليد فيقول:

«أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة»[(١)].

الملاحظ أن البنية التركيبية لهذا الخطاب تبدو اكثر هدوءاً من الخطاب الاول على الرغم من كونهما قيلا في مكان واحد هو دار الأمير، وسبب ذلك أن المقام يختلف بين الخطابين، فمقام الخطاب الأول هو رد على تحريض غير مسؤول أطلقه مروان بن الحكم في حين جاء الخطاب الثاني لبيان موقف الإمام من هذا الامر، وتبدو تراكيب الخطاب الثاني خالية من الأساليب الإنشائية باستثناء النداء في بداية الكلام، أما تراكيب الخطاب الأخرى فقد بنيت على الأسلوب الخبري، ويبدو من خلال ما ورد في كلام الإمام أنه يحدد طرفين يحاول المقارنة بينهما.

الأول: الإمام الحسين الذي ينتمي إلى بيت النبوة ومعدن الرسالة.

الثاني: يزيد بن معاوية شارب الخمر المجاهر بالفسق.

وأول ما يلفت النظر في هذا النص هو تتابع النعوت أو الأخبار التي تصف كلاً من الطرفين، فالحسين سليل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحل الرحمة.

ويزيد شارب الخمر مجاهر بالفسق قاتل النفس المحترمة، إنّ تكرار هذه النعوت فيه مغزى دلالي قصد إليه الإمام هو تثبيت كل طرف في المكان المناسب له وكشف

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٤٦.

حقيقته بين المسلمين وفيه إشارة إلى ان سير الأمور كما هو واقع الآن ليس في صالح الأمة الإسلامية، لأن يزيد بحكم هذه المواصفات لا يصلح أن يكون ولي أمر المسلمين وأمير المؤمنين، والإمام الحسين بحكم مواصفاته هو الأصلح لتولي أمور المسلمين، ومن هنا كانت نهضته لتغيير هذا الواقع وإعادة الأمور إلى نصابها.

وفضلاً عما تقدم من دلالة فإن الإمام بنى سياق خطابه على التراكيب الإسمية «**إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة... ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر**»، وبناء الخطاب على هذه التراكيب يدل على ثبات هذه الصفات في كل طرف وكأنها طبيعة ملازمة له لا تنفك عنه، ومن أجل هذا عدل الإمام عن التركيب الفعلي الذي يدل على الحدوث والتجدد.

وفي قوله «**بنا فتح الله وبنا يختم**» قدم شبه الجملة «**بنا**» على الفعلين «**فتح ويختم**» وهذا التقديم له دلالة هي التخصيص والقصر، ويدل استعمال صيغة الماضي على سبق أهل البيت بفتح الله سبحانه وتعالى، اما الفعل المضارع «**يختم**» ففيه دلالة على استمرار هذا الأمر فيهم(١)، ويمكن أن نلمح من هذا إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى اختص أهل البيت بولاية المسلمين، وجعلها حقاً لهم وهذا ما يدل عليه ختام كلمة الإمام حين قال: «**وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة**».

لقد أعلن الإمام في سياق هذا الخطاب رفضه القاطع لبيعة يزيد بولاية أمور المسلمين بقوله: «**ومثلي لا يبايع مثله**» لقد بنى الإمام هذا الحكم على ضوء ما تقدم من صفات الطرفين، وقد مثل هذا التركيب موقف الإمام الرافض لهذه البيعة، لأن موافقة الإمام على هذه البيعة يعني إعطاء الغطاء الشرعي لخلافة يزيد وهذا ما يرفضه الإمام رفضاً قاطعاً وقد أعلن هذا الموقف أمام الملأ جميعاً.

---

(١) المأثور من كلام الإمام الحسين، دراسة لغوية / ٧٢.

٢ـ وصية الإمام لأخيه محمد بن الحنفية

حين عزم الإمام الحسين (عليه السلام) على الخروج من المدينة إلى مكة قام بزيارة قبر جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لتوديعه وإلقاء النظرة الأخيرة عليه، ثم ودع أهل بيته ممن لم يخرجوا معه وودع الصحابة والتابعيين من المهاجرين والأنصار، وقبل خروجه كتب وصية إلى المسلمين في المدينة وفي غيرها وختمها بختمه الشريف وسلمها إلى أخيه محمد ابن الحنفية وفيما يأتي نص الوصية:

«هذا ما أوصى به الحسين بن علي إلى أخيه محمد ابن الحنفية، أنّ الحسين يشهد أنّ لا إله الا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله جاء بالحق من عنده، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي وأبي علي بن ابي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين وهو خير الحاكمين»[١].

إنّ الناظر في بناء هذه الوصية يجد أنها تركز على ثلاثة أمور هي:

١ . بيان المرتكزات الأساسية للدين الإسلامي والتزامه بها.

٢ . إثبات ما بشرت به الرسالة المحمدية وكونه حقاً لا شك فيه.

٣ . تحديد الهدف من خروجه (عليه السلام) ورفضه بيعة يزيد.

بدأ الإمام وصيته بالشهادة أنْ لا إله الا الله، وانه وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق من عنده ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وما ذكره الإمام هنا هو الأساس الذي قامت الدعوة الإسلامية من أجله، ودعت الناس إلى الإيمان به والتصديق برسالة السماء، والإمام حين ذكر هذه الأمور في بداية وصيته أراد

---

(١) بحار الانوار ٤ / ٣٢٩.

أن يبين للمسلمين أنّ دعوته هي امتداد لدعوة جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأن منهجه هو منهج جده، وفي هذا دلالة على ان من يتبع منهجه انما يتبع منهج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم بدأ بعد ذلك بإثبات ما بشرت به الدعوة الإسلامية وكونه حقاً وصدقاً، فالموت حق والجنة وثوابها حق والنار وعقابها حق، وبعث الأموات يوم القيامة حق، وهذه هي المفاهيم الإسلامية التي حملتها دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعت الناس إلى الإيمان بها، ولأن الإمام الحسين سائر على منهج جده فهو يؤمن بكل ما جاء به الرسول من مفاهيم تمثل مرتكزات الدين الإسلامي، وهو يدعو المسلمين إلى التمسك بهذه المفاهيم ـ وربما يتبادر سؤال في الأذهان ـ ما الغرض من تأكيد الإمام على هذه الأمور ودعوته إلى التمسك بها، وهي معروفة عند المسلمين وجاء بها القرآن في طائفة من آياته؟.

إن الواقع الذي يعيشه المسلمون بعد اكثر من نصف قرن من الدعوة الإسلامية يجعل لتأكيد الإمام على هذه الثوابت والتذكير بها مغزى دلالياً، وقد استعمل الإمام أسلوب التوكيد بـ«**إن**» في كل التراكيب التي بنى عليها وصيته ليوحي بحقيقة يمثلها الواقع المعاش، فقد بدأ كثير من الناس في عهد الدولة الاموية بالتحلل من المفاهيم الإسلامية، ولم يكن أكثرهم متمسكاً بالإسلام كما هو في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والخلفاء الراشدين، وبدأ كثير من المسلمين في عهد معاوية يتحللون من تعاليم الإسلام، فعادت النعرة الجاهلية وشاع شرب الخمر في أوساط ولاة المسلمين فكيف بالرعية؟! وبرزت إلى الوجود تلك الفكرة الجاهلية التي لا تؤمن بالبعث والحساب، والحياة بعد الموت والجنة والنار وغيرها من مفاهيم الإسلام، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الفكرة الجاهلية بقوله:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ المؤمنون/٣٧.

ومن هنا نرى الإمام الحسين يؤكد على أن هذه المفاهيم حق أنزله الله على رسوله وهو يشهد انها حق، وقد آمن بها الأولون من الصحابة ولا شك ان شهادة الإمام الحسين في هذا الميدان لها ثقلها في ميزان الأعمال وعند المؤمنين، لانها شهادة من إمام عصره وسليل بيت النبوة ووارث علم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويمكن أن نمثل على ما تقدم ذكره من تحلل بمسلك عمر بن سعد، وهو من التابعيين ومن معه، فقد خرج لقتال الإمام الحسين وهو يقول:

يقولون أن الله خالق جنة ... ونارٍ وتعذيب وغل يدين
فإنْ صدقوا فيما يقولون انني ... أتوب إلى الرحمن من سنتين
وإنْ كذبوا فزنا بدنيا عظيمة ... وملك عظيم دائم الحجلين

وهل من تحلل أكبر من هذا فهو يشكك في وجود الحساب والعقاب والجنة والنار، ويستعمل فعل القول بمعنى الشك في وجود الجنة والنار، ويستعمل أداة الشرط «إن» وهي في هذا السياق تدل على ان ما بعدها غير متحقق الوقوع، وقوله دائم الحجلين يدل على إنكاره الآخرة وانه لا يرى غير الحياة الدنيا، ويمكن أن نجد مثل هذا المسلك في كثير من أفكار المسلمين في عهد الدولة الاموية، وبعد تأكيد الإمام لهذه المفاهيم وتمسكه بها لأنها تمثل المنهج الاصيل للدعوة الإسلامية، بدأ بتحديد الأسباب التي دعته إلى رفض البيعة ليزيد وخروجه على حكمه موضحاً للمسلمين انه لم يخرج من أجل الخروج، ولم يخرج من أجل دنيا زائلة ولا ملك فانٍ، انما كان سبب خروجه هو طلب الإصلاح في أمة جده وأبيه بعد أن رأى الانحراف عن مبادئ الدين الإسلامي، فالمنكر لا ينهى عنه والمعروف لا يؤمر به، ورأى موت الدين وإحياء البدع ورأى الباطل يعلو على الحق وابتعاد الناس عن مبادئ الدين الإسلامي، وانتشار الفساد في البر والبحر، كل هذا دفعه إلى الخروج لطلب الإصلاح واحياء الدين واماتة

البدع يدل على ذلك انه استعمل اداة الحصر «**انما**» لتحديد هذا الهدف وتخصيصه بقول: «**اني لم أخرج أشراً ولا بطراً... إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي وأبي**»، ومع انه كان يعرف المصير الذي ينتهي إليه فانه يعرف ايضاً ان دمه هو القربان الذي به حياة الدين الإسلامي دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يعرف ان دمه هو الثمن الذي يستقيم به دين الإسلام، لذا قال للباترات: خذيني إذا كان في قتلي حياة الدين واستقامته والحفاظ على مبادئه.

لقد أراد الإمام أن يعيد سنة جده وأبيه في قيادة المسلمين والحفاظ على مبادئ الإسلام وحمايتها، ومن هنا كانت دعوته في هذه الوصية دعوة اختيار، فمن تبعه على وفق هدى الإسلام ومبادئه وسنة الرسول فهو على الحق الذي أراده الله ودعا إليه في كتابه، ومن لم يتبعه واختار الدنيا فهو حرٌّ في اختياره، وسوف يصبر الإمام على كل حال حتى يقضي الله في أمره ويحكم بينه وبين القوم الظالمين لقد كانت دعوة الإمام دعوة صادقة لإصلاح الفساد وإعادة العمل بالقيم والمفاهيم التي أقرها الدين الإسلامي، وقد عبرت أبنية هذه الوصية بدقة عن مراد الإمام وكشفت من خلال تراكيبها عن الصراع الشديد من أجل حطام الدنيا الزائلة، لقد كانت دعوة صادقة من أجل تحكيم مبادئ الدين الإسلامي في بناء المجتمع ليصل من خلال ذلك إلى بر الامان[1]، ولكنها دعوة لم تجد أُذناً صاغية وشغلت الدنيا الناس عن الإسلام.

٣ـ خطابه إلى وجوه البصرة

حين خرج الإمام الحسين من المدينة إلى مكة لم يكن في تفكيره الإقامة في هذه المدينة وانما كان يريد أن يتخذها محطة مرور يتوقف فيها ويزور بيت الله الحرام وهو في طريقه إلى العراق، لأن أهل الكوفة أرسلوا إليه رسلهم وكتبهم يدعونه إلى القدوم

(١) ينظر الإمام الحسين شمس لن تغيب / ٣٢.

إليهم وهم شيعة أبيه وأنصاره وفيهم من شهد معه معاركه مع أعدائه، وحين عزم الإمام على مغادرة المدينة ودع قبر جده ومن لم يخرج معه من بني هاشم وخرج وسط معارضة شديدة من بني هاشم والصحابة في مدينة الرسول، وفي ضوء عزمه على المسير إلى العراق كان يرى تأمين جانب أهل البصرة وضمهم إلى نصرته ومن أجل ذلك بادر بإرسال خطاب إليهم مع مولى له يقال له سليمان، وقد وجه خطابه إلى رؤساء الأخماس وهم كل من (مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن قيس، والجارود بن المنذر، ويزيد بن مسعود، وقيل مسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبيد بن معمر)[1] وفيما يأتي نص الخطاب.

«أما بعد فإن الله اصطفى محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) على خلقه، وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه إليه، وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا بذلك وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحروا الحق فرحمهم الله، وغفر لنا ولهم، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه فإن السنة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت، إنْ تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبل الرشاد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[2].

إن الناظر في بناء هذا الخطاب يجد أن الإمام الحسين (عليه السلام) حدد فيه جانبين:

الاول: التذكير بأنهم أهل بيت النبوة، وهم وارثو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحق الناس بالقيام مقامه في ولاية أمور المسلمين، ومن هنا فهم أولى

(١) ينظر تاريخ الطبري ٣ / ٢٨٠، ومثير الاحزان / ١٣.

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٢٨٠.

بالاتباع من غيرهم وفي الخطاب إشارة إلى حق مغتصب ويقصد به الإمام بيعة الغدير التي عقد فيها الرسول الولاية بعده إلى الإمام علي بن أبي طالب، وأشار إلى أنهم حين قبلوا ولاية غيرهم فمن أجل حقن دماء المسلمين وحفظ وحدتهم، ولم ينس سيد الشهداء أن يترحم ويستغفر لمن تولى أمر المسلمين آنذاك بالرغم من كل ما حدث، ويمثل هذا درساً في سمو الإمام الحسين وعظمته، وقد ذكر الإمام الحسين أنهم الآن أصحاب الحق في استرداد ما سلب منهم وتولي قيادة الأمة الإسلامية.

الجانب الثاني: هو دعوة هؤلاء الرجال ومن يتبعهم إلى نصرة الدين والوقوف مع الإمام وهو يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه من أجل إحياء العمل بهما، والعمل بمبادئ الدين الإسلامي ومفاهيمه، وقد نبه الإمام إلى الخطر المحدق بالدين من خلال إماتة السنة وإحياء البدعة، ثم يبين لهم أن سبيل الهدى والرشاد معهم أهل البيت، فمن تبعهم اهتدى إلى طريق الحق لأنهم وارثو ثقل النبوة وهم أهل بيت النبي، وقد أوصى بالتمسك بهم وهم أصحاب الحق في هذا الأمر.

وحين ننظر إلى البنية اللغوية لهذا الخطاب نجد أنها بدأت بالتوكيد من خلال استعمال «**إنّ**» المشددة التي فيها معنى التوكيد، ثم بنى تراكيب الخطاب على البنية الفعلية التي فيها معنى التجدد والحدوث، واستعمل الإمام صيغة الماضي «**اصطفى، اختار، أكرم، قبض، نصح، بلغ**»، لأنه يريد التذكير بأمر سابق الحدوث ومعروف عند جميع المسلمين، وهو الدعوة المحمدية التي استطاعت أن تغيّر وجه الدنيا، وتقود أمة الإسلام إلى طرق الهدى، فقد اختار الله محمداً ليكون رسولاً للإنسانية، وقد استطاع إتمام رسالته في بناء دولة الإسلام بالرغم من كل المصاعب التي واجهته في بداية الدعوة، ولأن غرض الإمام التذكير تطلب سياق الكلام اعتماد البنية الفعلية، لأنها هي الأقدر على التعبير في مثل هذه المواقف. وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أهل بيته أولى الناس بالقيام

مقامه، وهم الأصلحون لتولي أمور المسلمين، وهذا ما قرره لهم الرسول نفسه في حجة الوداع لكن غيرهم استأثروا بهذا الحق فسكتوا حفاظاً على وحدة المسلمين ودمائهم.

وحين أراد الإمام بيان هذا الأمر عدل عن التراكيب الفعلية التي بدأ بها خطابه إلى التراكيب الاسمية، فبنى القسم الثاني من خطابه على التراكيب الاسمية (كنا أهله، ونحن أولياؤه ونحن أوصياؤه، ونحن ورثته، ونحن أحق الناس بمقامه)، وهذا العدول له غرض دلالي هو ثبات ما ذكره الإمام فيهم دون غيرهم، لأن الجمل الاسمية فيها دلالة على الثبات والدوام بخلاف الجمل الفعلية، فأنت حين تقول: «محمد يكتب» له دلالة تختلف عن قولك: «محمد كاتب» وما أراد الإمام بيانه لهؤلاء القوم هو ثبات الولاية في أهل البيت، وقد وظف الإمام إحدى الظواهر اللغوية في سياق خطابه بقصد الإيجاز هي ظاهرة الحذف، فقد حذف المسند إليه «المبتدأ» في عدد من التراكيب الاسمية بعد قوله: «وكنا أهله»، وقد سوغ الحذف في هذا السياق تقدم ما يدل على المحذوف.

وحين ننظر إلى المقطع الأخير من خطاب الإمام نجد فيه تركيزاً على الدعوة إلى إحياء مبادئ الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه ومحاربة البدع التي شاعت وإحياء السنة التي أُميتت، وقد عدل الإمام من صيغة البناء للمعلوم في بداية خطابه إلى صيغة البناء للمجهول يقول: «**فإن السنة قد أُميتت وإنّ البدعة قد أُحييت**» ولم يصرح الإمام بمن أمات السنة وأحيا البدعة، وسبب هذا العدول واضح هو أن الإمام يخاطب قوماً لم يكن واثقاً من استجابتهم لدعوته وليس من المناسب في هذا المقام ذكر الأسماء، وقد أثبتت الوقائع دقة نظر الإمام فلم يستجب لدعوة الإمام من هؤلاء سوى يزيد بن مسعود زعيم قبيلة تميم، اما الآخرون فلم يستجيبوا لهذه الدعوة، بل إنّ أحدهم وهو الجارود بن المنذر سلّم رسول الحسين إلى ابن زياد ليضرب عنقه(١).

---

(١) تأملات في زيارة وارث / ١٥٣.

ويبدو مما تقدم أن خطاب الإمام الحسين مع رؤساء الأخماس في البصرة لم يؤت ثماره، وحتى من استجاب منهم وهو زعيم تميم كانت استجابته متأخرة، لأنه حين أراد المسير إلى كربلاء علم باستشهاد الإمام وأصحابه.

٤ـ كتاب الإمام الحسين إلى أهل الكوفة

الكوفة موطن شيعة أهل البيت، وقد أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية بعد أن اتخذها الإمام علي بن ابي طالب عاصمة للدولة في خلافته، وقد أصبحت من أهم المدن الإسلامية آنذاك وشهد أهلها مع الإمام أشهر المعارك التي حدثت في خلافته مثل معركة الجمل وصفين والنهروان، وقد اصبحت الكوفة بعد استشهاد الإمام في محرابها معقل شيعة أهل البيت وأنصارهم، وحين هلك معاوية وامتنع الإمام الحسين من بيعة يزيد بادر وجوه أهل الكوفة وأنصار الإمام فيها إلى عقد الاجتماعات والدعوة لبيعة الإمام الحسين، واتفق رأيهم على إرسال الوفود والكتب إلى الإمام الحسين وهو في مكة يطلبون منه القدوم إلى بلادهم ويعلنون ولاءهم واستعدادهم لنصرته، والوقوف معه ضد الباطل وهم يناشدونه القدوم إلى العراق ليعقدوا له البيعة بولاية أمر المسلمين:

«أقدم علينا يا ابن بنت نبينا، أقدم علينا يا ابن بنت رسول الله، نحن لك جنود مجندة، وسيوف مشرعة، معكم معكم أهل البيت لا مع عدوكم، أقدم علينا يا ابن أمير المؤمنين فإن الناس ينتظرونك، ولا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل والسلام عليك»[(١)].

هذه العبارات وغيرها تمثل ما تضمنته كتبهم، وما حملته رسلهم إلى الإمام الحسين، وكان لا بد للإمام الحسين من إجابة هؤلاء القوم الذين ازدحمت لديه كتبهم

(١) الاسرار الحسينية / ٢٨١.

حتى بلغت المئات وكلها تعلن البيعة والولاء، وقد قرر الإمام الحسين إجابة هؤلاء القوم مع آخر رسولين وردا عليه منهم فأرسل إليهم كتاباً أخبرهم فيه بعزمه على القدوم إلى بلدهم قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين، أما بعد فإنِ هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم وكانا آخر من قدم علي من رسلكم، وقد فهمت كل الذي قصصتم وذكرتم، ومقالة جلكم انه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب لي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليّ انه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل منكم على مثل ما قدمت به عليَّ رسلكم وقرأت في كتبكم اقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله، فلعمري ما الإمام الا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه في ذات الله والسلام»(١).

يبدو من خلال ما ورد في هذا الكتاب أن الإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن على ثقة تامة من نوايا هؤلاء القوم الذين كاتبوه وأرسلوا إليه وفودهم ذلك أن التجارب التي مرّ بها أبوه وأخوه توحي بظلال من الشك في صدق النوايا، وقد أثبتت الأيام صحة ما توقعه الإمام الحسين (عليه السلام)، لقد أدرك الإمام الحسين المعاني الدلالية التي وردت في كتبهم وفهم ما حملته رسلهم ووفودهم وما أجمع عليه رأيهم، وقد تلبث الإمام طويلاً قبل أن يرد عليهم.

لقد استعمل الإمام في كتابه اللغة البسيطة والتراكيب الواضحة ليكون في متناول فهم الجميع ممن يصل إليهم، ولم يرد في هذا الكتاب من الظواهر اللغوية ما يستعصي

(١) الكامل في التاريخ ٢ / ٥٣٤، مقتل الامام الحسين، الخوارزمي ١ / ١٩٥.

على الإدراك أو يحتاج إلى إعمال الفكر لفهمه، لأن مقام الكتاب يتطلب هذه اللغة الواضحة، غير أن هناك ما يمكن التوقف عنده، لأن الإمام استعمله بقصد محدد، لقد وجه الإمام خطابه إلى الملأ من المؤمنين أولاً ومن المسلمين ثانياً، ولفظة الملأ لها أكثر من دلالة ولكنها في هذا السياق تعني رؤوس القوم وأشرافهم واستعمل الإمام لفظتي «**المؤمنين والمسلمين**» والفرق الدلالي واضح بين المفردتين، فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص فكل مؤمن مسلم ولا عكس، وغرض الإمام من هذا الاستعمال أن يكون خطابه شاملاً فليس كل المخاطبين مؤمنين، ثم أخبرهم بأنه قرأ كتبهم وفهم ما ورد فيها من إجماع وقد قرر أن يرسل إليهم ثقته من أهل بيته وابن عمه مسلم بن عقيل، وطلب منه أن يوافيه بأخبارهم وأحوالهم، وما يجمع عليه أصحاب الرأي منهم، فإن كان الواقع مطابقاً لما ورد في الكتب فإنه قادم بمشيئة الله سبحانه، ثم ختم الإمام كتابه إلى أهل الكوفة بما يجب أن يتصف به من يتولى إمامة المسلمين وقيادهم وهذه الصفات هي، العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وبسط العدل والاعتراف بالحق وإطاعة الله في أوامره ونواهيه، ويبدو من بنية الخطاب أن هذه الصفات تكون ثابتة وملازمة لمن يتولى هذه المهمة لذا استعمل الإمام التراكيب الاسمية للتعبير عنها «**العامل بكتاب، الآخذ بالقسط، الدائن بالحق، الحابس نفسه في ذات الله**» ويمكن أن تلمح في هذا إشارة إلى أن من يتولى قيادة الأمة الآن بعيد عن كل هذه الصفات ومن هنا يتوجب على المؤمنين رفض بيعته، وأن يرتضوا الإمام الذي تؤلف هذه الصفات جزءاً من كيانه، وتكون فيه طبيعة ثابتة، ولأن هذه الصفات لا ينطوي الحاكمون على شيء منها، فإنهم غير صالحين لقيادة الأمة الإسلامية وتولي أمورها، وفي الكتاب إشارة إلى أن هناك من هو أصلح منهم لتولي هذا الأمر وهم أهل بيت النبوة وفي مقدمتهم الإمام الحسين (عليه السلام).

٥ـ خطابه قبل الخروج من مكة

أمضى الإمام الحسين (عليه السلام) مدة طويلة في مكة تقرب من أربعة أشهر بعد خروجه إليها من المدينة، ولم تنقطع عنه في هذه المدة كتب أهل العراق ووفودهم وهي تدعوه إلى القدوم إلى بلدهم وتعلن ولاءها وبيعتها له، وقد تقدمت الإشارة إلى أن الإمام الحسين قرّر أن يرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل، وطلب منه أن يوافيه بأخبارهم وأحوالهم، وحين وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة ومعه كتاب الإمام الحسين اجتمع إليه الآلاف من أبناء الكوفة، واعلنوا بيعتهم للإمام الحسين، وصلى خلفه مئات من الناس في المسجد، وحين اطمأن مسلم إلى نوايا القوم لم يكن أمامه سوى إخبار الإمام الحسين بواقع الحال، فكتب إليه يخبره بإجماع أهل الكوفة على بيعته وبذلهم أنفسهم وأموالهم من أجله، وإعلانهم الولاء لإمامته، وفي ضوء هذا لم يكن أمام الحسين سوى الوفاء بالوعد الذي قطعه لأهل العراق وتلبية دعوتهم في المسير إلى بلادهم، وهكذا عزم الإمام على مغادرة مكة إلى العراق بالرغم من رغبة بني هاشم وعدد من الصحابة في عدم خروجه، وغادر الإمام مكة في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة (٦٠هـ) بعد أن طاف بالبيت وحل إحرامه وجعل حجه عمرة وقبل أن يغادر الإمام الحسين مدينة مكة جمع الناس وألقى على مسامعهم خطابه الأخير قبل خروجه إلى العراق قال:

«الحمد لله وما شاء الله ولا قوة الا بالله، وصلى الله على رسوله، أيها الناس، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، ولا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن

رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقر بهم عينه، وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإنني راحل مصبحاً إن شاء الله»[١].

إنّ أول ما يلفت النظر في سياق هذا الخطاب وتراكيبه أنه يخالف المألوف في خطابات الثائرين وطالبي الإصلاح، لأن أمثال هؤلاء يحرصون على إغراء الناس بما يحققونه من مكاسب وانتصارات، ويعدونهم بالحصول على الملك والسلطان وتحقيق الأهداف وإنجاز المهمات، وحين ننظر في تراكيب هذا الخطاب، ونستوحي دلالتها نجد أن الإمام ينعى نفسه، ويرسم نهايته ويمني من يتبعه بالشهادة ولقاء الله، لأن طريقه هو طريق الشهادة، يقول الشيخ الآصفي:

«هذه الخطبة عجيبة في لهجتها، عجيبة في مضامينها ودعوتها، وهي تتضمن الاستنصار والترغيب والتزهيد والدعوة والرفض»[٢].

ويبدو لأول نظرة إلى نص هذا الخطاب أن تراكيبه تزدحم بالمتناقضات فهو يدعو الناس إلى نصرته، وينعى نفسه في الوقت نفسه، ويدعو إلى الزهد في الدنيا ويرغب من يلحق به بالشهادة، وقد يبرز سؤال في الذهن عن السبب الذي دفع الإمام إلى بناء أسلوب خطابه بهذه الطريقة وهو يدعو الناس إلى تأييد مسعاه في استعادة الحق المغتصب، وفي هذا الوقت الذي أعلن فيه ثورته على الظلم والظالمين وعزم على الخروج إلى العراق.

إن الجواب عن هذا التساؤل، هو أن الإمام أراد أن يكون صادقاً مع نفسه أولاً وصادقاً مع من يتبعه، فهو يعرف المصير الذي يسير إليه، ويعلم أنه ماضٍ في طريق

(١) أعيان الشيعة ١ / ٥٩٣.

(٢) تأملات في زيارة وارث / ١٥٧.

الشهادة، وعد وعده به الله ورسوله، ولا يمكن لإمام مثل الحسين أن يستعمل غير هذا الأسلوب الذي بنى عليه تراكيب خطابه عشية خروجه من مكة.

لقد مثل هذا الخطاب بمفرداته وتراكيبه وأسلوب صياغته الوداع الأخير لمدينة جده رسول الله وبيت الله الحرام، وهو يمثل أيضاً الإنذار الأخير للمسلمين، لكي يحسموا خيارهم بين الفناء والخلود، بين الحق والباطل بين الظالم والمظلوم.

بدأ الإمام خطابه بحمد الله والثناء عليه ثم الصلاة على الرسول الكريم، وبعد ذلك انتقل إلى ما يريد بيانه، فأشار إلى حتمية الموت على بني آدم ولا يمكن لأحد الفرار من هذا المصير، ويمكن أن نستوحي من هذا القول ظلالاً دلالية تشير إلى التزهيد في هذه الدنيا الفانية، وقد استعار الإمام صورة للتعبير عن حتمية الموت وإحاطته بالبشر هي صورة القلادة التي تحيط بجيد الفتاة، ووجه الشبه بينهما هو إحاطة كل منهما بما وضع له، ويبدو من البنية التركيبية التي بدأ بها الإمام خطابه أنها تحمل شحنات دلالية أراد الإمام التركيز عليها وبيانها وأهمها:

تخصيص الموت بالإنسان بدلالة قوله: «**ولد آدم**» في حين أن الموت ظاهرة عامة تطال كل كائن حي، وهدف الإمام من هذا التخصيص واضح ذلك أن مقام الخطاب يتطلب مثل هذا، لأنه موجه إليهم، وبناء الفعل «**خُطّ**» للمجهول يدل على أن التركيز سيكون على نوع الحدث وهو الموت دون الالتفات إلى الفاعل لأنه معروف، ولو استعمل الفعل مبنياً للمعلوم لما ادى التركيب هذه الدلالة، وفضلاً عن ذلك فقد استعمل الإمام حرف الجر «**على**» الذي فيه معنى الاستعلاء ليبرز من خلال ذلك طابع العلو والسيطرة والتمكن في إيقاع الموت(١).

ولكن السؤال. لماذا بدأ الإمام خطابه هكذا؟.

---

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسيني / ٧٣.

والجواب: هو أن دلالة هذا الابتداء واضحة هي التزهيد في هذه الدنيا الفانية والإشارة إلى أن كل ما فيها مصيره الزوال ونهايتها الحتمية هي الموت، فلا مسوغ للتشبث بها وارتكاب المعاصي ومخالفة أوامر الله من أجلها، ومن هذه الفكرة يريد الإمام أن يكون أتباعه من الزاهدين بهذه الدنيا، أن يكونوا ممن باعوا الدنيا بالآخرة، أن يكونوا ممن وطّن نفسه على لقاء الله والرضا بقضائه، أن يكونوا من الذين يطلبون الموت لتوهب لهم الحياة.

وبعد هذه الصورة التي رسمها الإمام الحسين لإحاطة الموت ببني آدم، وهي صورة تنبض بالحياة وتجسد الموت الذي هو صورة ذهنية بصورة حسية هي صورة القلادة، ينتقل الإمام إلى استعارة صورة من قصص القرآن الكريم ليجسد من خلالها اشتياقه للقاء ربه ولقاء جده وأبيه وأمه وأخيه وهم الذين وصفهم بأسلافي وبين شوقه إليهم، وهذه الصورة هي صورة الاشتياق الذي في قلب يعقوب إلى ولده يوسف، وهي من أعظم الصور التي رسمها القرآن الكريم لبيان شدة الاشتياق، يقول: «**وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف**»، انها صورة من التشبيه الرائع جسد فيها الإمام الحسين شوقه إلى الموت الذي سوف يجمعه بأسلافه الماضين، ويمكن أن نلمح في هذا التركيب ظلالاً من المعاني التي تشير إلى رغبة الإمام الحسين في الموت الكريم، وزهده في هذه الدنيا الفانية.

وينتقل الإمام في خطابه بعد ما تقدم إلى مسألة جديدة بناها على توقع لا يخطئ، وهذه المسألة هي تحديد المصير الذي يسير إليه، وهو مصير خط بالقلم ووعده به الله ورسوله، وقد عبر عن ذلك بأسلوب صوّر فيه نهايته التي يسير إليها مجسداً الحقيقة التي آمن بها يقول: «**كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً**» لقد رسم الإمام في هذه التراكيب عدداً من

الصور تنبض بالحياة وكأن السامع يراها أمامه «**أوصال مقطعة، ذئاب شرسة تنهش تلك الأوصال، مكان محدد، بطون يصرخ فيها الجوع**».

لقد كانت صورة متكاملة الأبعاد تجسد الحدث بصورة دقيقة لقد صور الإمام وحشية الاعداء وشراستهم من خلال الرمز الموحي بهذه الوحشية، صورة ذئاب متوحشة، بطونها فارغة ينهشها الجوع بكل قوة فتجد أمامها ما تفترسه لتملأ منه بطونها، هكذا هي الصورة التي رسمها الإمام لجيش الأعداء وحاجة أفراده إلى التزود من حطام الدنيا، يقول أحد الباحثين:

«ويبدو أن الصورة الاستعارية في الخطاب لا تعني بحقيقة الجوع وفراغ البطون، بقدر ما تصور الحاجة الدنيوية لهذا الجيش بأكراش هذه الحيوانات الجائعة»(١).

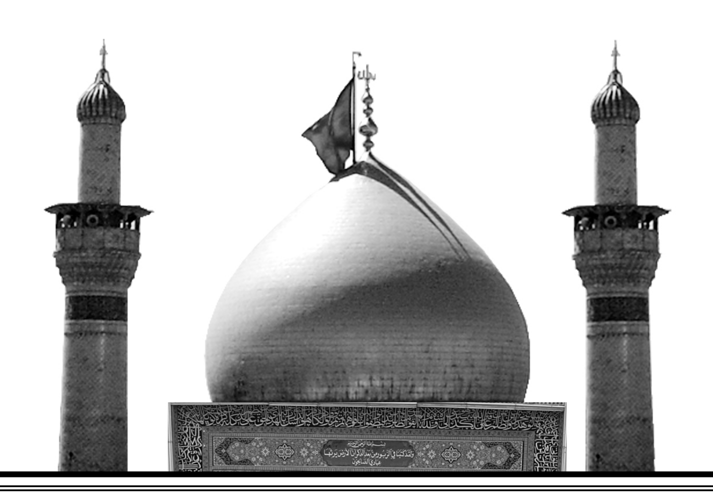
إن من يسمع هذه الطائفة من التراكيب يشعر بأن الإمام الحسين ينعى نفسه، ويحس بناقوس الحزن يقرع أبواب قلبه، ولذا نجد الإمام بعد تحديد هذه النهاية التي سوف يصير إليها يذكر أنه سوف يصبر على كل ما يحل به من البلاء، ليوفى أجر الصابرين وهو أجر عظيم وهو لن يشذ عن لحمة جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد وجه دعوته إلى المؤمنين، إلى من يبذل نفسه في سبيل الله ويوطنها على لقائه، ويكون قادراً على مواجهة المصير الذي يؤول إليه أن يرحل معه ويشد أزره، ولكي يقرر حتمية الرحيل وثباته استعمل التركيب الاسمي يقول: «**فإني راحل مصبحاً إنْ شاء الله**»، وهذا التركيب الاسمي المؤكد يدل على ثبات الرحيل وتحقيقه في صباح اليوم التالي، وما ورد في خطاب الإمام من توكيد الحدث وتحقيق وقوعه يماثل ما ورد في قوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة / ٣٠.

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ٧٨.

لقد انتهت بهذا الخطاب المرحلة الأولى من مراحل الخطاب الحسيني، وقد تضمنت هذه المرحلة ما تكلم به الإمام وما وجهه من خطابات ورسائل وهو في بلاد الحجاز سواء أكان ذلك في المدينة أم في مكة بعد وصوله إليها وإقامته فيها إلى حين غادرها في شهر ذي الحجة من سنة (٦٠هـ) واتجه في مسيره نحو العراق تلبية لدعوة أهلها، وسوف تبدأ المرحلة الثانية من مراحل هذا الخطاب، وهي تتضمن خطابه في أثناء المسير من مكة إلى العراق حيث تنتهي هذه المرحلة بنزوله في أرض كربلاء ومواجهته جيوش الأعداء، وعندها تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل هذا الخطاب.

لقد جسد الخطاب الحسيني في مرحلته الاولى الأهداف التي نهض الإمام الحسين من أجل تحقيقها، وحدد الأسباب والدوافع التي جعلت الإمام الحسين يمتنع من إعطاء البيعة ليزيد، ويعلن رفضه القاطع أمام من طلب منه ذلك، وفضلاً عما تقدم فقد حمل الخطاب الحسيني في مرحلته الاولى ظلالاً من الوعظ والإرشاد وبيان وجوه الحق ووجوه الباطل ودعوة المسلمين إلى التمييز بينهما.



الفصل الثالث

الخطاب الحسيني في مرحلة المسير إلى كربلاء

مدخل

حين غادر الإمام الحسين مدينة جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مدينة مكة لم يكن مطلقاً يفكر في اتخاذها مستقراً لإقامته، انما أراد أن يتخذها محطة يتوقف فيها مدة من الزمن، ثم يواصل بعدها المسير إلى العراق، وحين وصل الإمام الحسين إلى مدينة مكة وأقام إلى جوار بيت الله الحرام، زاره كثير من الصحابة والتابعين وطلبوا منه الإقامة في هذه المدينة، وفي خلال إقامته في مدينة مكة لم تنقطع عنه وفود أهل الكوفة وهي تدعوه إلى القدوم إلى العراق، ولم يكن الإمام راغباً في البقاء في مدينة مكة، لأنه يعرف نوايا الامويين وخططهم لقتله وقد أعدوا العدة لذلك، وجعلوا توقيتها في موسم الحج، وقد فوت الإمام هذه الفرصة عليهم بخروجه قبل وقت التنفيذ في الثامن من ذي الحجة سنة (٦٠هـ) بالرغم من معارضة عدد كبير من الصحابة والتابعين وبني هاشم لهذا الخروج، ويبدو أن الإمام قد حسم أمره واتخذ قراره بالرحيل إلى العراق حيث المكان الموعود، خرج لأنه لا يريد أن يكون سبباً في انتهاك حرمة هذه المدينة وبيت الله الحرام، ولهذا أجاب عبد الله بن الزبير حين قال له: لو أقمت في الحجاز ثم طلبت هذا الأمر لما خالفت عليك «**إن أبي حدثني أن لها كبشاً به تستحل حرمتها وما أُحب أن أكون أنا ذلك الكبش**»[1]، ويبدو مما تقدم أن الإمام كان يعرف أن الامويين سوف يطلبونه ولن يتركوه حياً على كل حال وفي اي مكان، وقد أكد ذلك في قوله لابن عباس:

---

(١) الكامل في التاريخ ٤ / ٣٨١.

«والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم»[١].

وفضلاً عما تقدم من الأسباب التي دعت الإمام إلى الخروج من مكة، فهو يعرف أن بيئة مكة غير ملائمة لاتخاذها مكاناً لثورته ضد الحكم الأموي لأن أكثر الموجودين فيها لم يكن هواهم مع الإمام الحسين وفيهم من يميل إلى الامويين، وقد أثبتت الايام فيما بعد دقة نظر الإمام الحسين في هذا الأمر، فقد أعلن عبد الله بن الزبير ثورته ضد الامويين منها وانتهت نهايتها المعروفة، وانتهكت حرمة بيت الله. وفي ضوء ما تقدم لم تكن مدينة مكة ملائمة لثورة الإمام الحسين ولكنه أرادها أن تكون المنطلق الأول لإعلان ثورته على حكم يزيد بن معاوية الذي خرج على تعاليم الدين الإسلامي وأقام حكماً ظالماً لا يقوم على مبادئ الإسلام وسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

لقد خرج الإمام من مدينة مكة في اليوم الثامن من ذي الحجة واختيار هذا اليوم له دلالتان:

١ . اختار هذا اليوم ليتفادى ما يدبره الامويون من محاولة لاغتياله، وقد انتدبوا لذلك عمرو بن سعيد الأشدق، الذي فاجأه خروج الإمام الحسين وأفشل خطته، ولم تفلح كل محاولاته في منع الإمام الحسين من الخروج.

٢ . إن هذا اليوم هو اليوم الذي يفيض فيه حجاج بيت الله الحرام إلى عرفات وفي هذا اليوم يعلن الإمام سخطه وثورته على حكم يزيد، وهذا الخروج يمثل رسالة ثائرة إلى كل بقاع البلاد الإسلامية في العالم وبذلك استطاع أن يوصل إعلان ثورته إلى كل بقاع الدنيا[٢].

---

(١) الإمام الحسين شمس لن تغيب / ٣٩.

(٢) المصدر نفسه / ٤١.

وينطلق ركب الإمام الحسين من مكة باتجاه العراق مصبحاً ـ كما ذكر في خطابه ـ ومعه أهل بيته وأنصاره في اليوم الثامن من ذي الحجة قاصداً مدينة الكوفة التي وعد أهلها بالقدوم إلى بلدهم وقد سبقه إليها ابن عمه مسلم بن عقيل الذي أخبره بإجماع الناس في الكوفة على بيعته والدفاع عنه.

ويبدو أن الأمور في الكوفة لم تستمر كما وجدها مسلم بن عقيل وأخبر الحسين بتفاصيلها، ذلك أن الأمور سرعان ما تغيرت فيها، فقد كتب بعض أهلها إلى يزيد يخبرونه أن واليها النعمان بن بشير الأنصاري ضعيف ولا قدرة لديه في مواجهة ما يجري ويطالبون بعزله، كما أخبروه باجتماع الناس حول مسلم بن عقيل رسول الإمام الحسين إلى أهل الكوفة، ونقلوا إليه خبر قدوم الإمام الحسين إلى العراق، وطلبوا منه إرسال والٍ قوي بدلاً من النعمان بن بشير، ويستجيب يزيد لهذا الطلب ويقع اختياره على عبيد الله بن زياد ليكون والياً على الكوفة بدلاً من النعمان بن بشير، ويدخل عبيد الله بن زياد الكوفة متنكراً ويدخل مسجدها ويلقي فيه خطبته المشهورة بالبتراء التي توعد فيها وهدد كل من يخالف أمره، واستعمل مع أهلها أساليب مختلفة لتغيير أفكارهم وصرفهم عن بيعة الإمام الحسين بالتهديد حيناً وبالترغيب والخداع حيناً آخر، وتنجح خطته في صرف الناس عن بيعة الحسين، وسرت بينهم الشائعات التي تضعف العزائم وتغير الأفكار، وصار لسان حالهم يقول: ما لنا والدخول بين السلاطين، ويبدأ الناس بالانصراف عن بيعة الإمام الحسين، ويجد مسلم بن عقيل نفسه وحيداً ومطلوباً وقد تفرق عنه الأتباع، ويدخل دار هاني بن عروة وهو من أنصار أهل البيت في الكوفة، وتتسارع الأحداث في هذه المدينة حتى تنتهي بمعركة غير متكافئة تنتهي بمقتل مسلم بن عقيل وقبله هاني بن عروة وهما من أوائل الشهداء في طريق الثورة الحسينية، وهكذا تغير حال الناس في مدينة الكوفة، وبدأ عبيد الله بن زياد بعد مقتل مسلم بإعداد

العدة لقتال الإمام الحسين الذي دخل أرض العراق مع أهل بيته وأنصاره، ويلقي القبض على قيس بن مسهر الصيداوي رسول الإمام الحسين إلى أهل الكوفة ويضرب عنقه، وهكذا حدثت في هذه المدينة ردة غيرت أفكار أهلها خوفاً وطمعاً، وكان هذا أول تحد يواجه الإمام الحسين في مسيره إلى العراق ويواجه ثورته ضد الظلم والانحراف، ويدخل الإمام أرض العراق وهو لا يعلم بما جرى في الكوفة حتى لقي هلال بن نافع وعمرو بن خالد فأخبراه بمقتل مسلم وهاني وانقلاب الناس في هذه المدينة، وقد أجابا حين سألهما عن حال الناس بقولهما:

«أما الأغنياء فقلوبهم مع ابن زياد، وأما باقي الناس فقلوبهم اليك»[1] وقيل: إنهما قالا: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك».

وحين بلغ الإمام الحسين مصرع مسلم بن عقيل وهاني بن عروة بكاهما وقال: رحم الله مسلماً، فلقد صار إلى روح الله وريحانه وجنته ورضوانه، ثم نعاهما إلى بيته وأنصاره.

ويقف الإمام الحسين (عليه السلام) متفكراً في هذه التحولات السريعة، وفي انقلاب نوايا الناس، وكيف يواجه هذه التحديات الخطيرة التي تواجه مسيرته، ثم يتخذ قراره الحاسم بأن ما حدث من تحول خطير في الكوفة واختلاف نوايا الناس فيها ومقتل رسوليه إليهم ومعهما هاني بن عروة لا يمكن أن يثنيه عن مواصلة مسيرته وإكمال ما بدأ به، لأنه يسير إلى مصير وعده الله به ورسوله، ولا بد أن يلاقي هذا المصير الموعود، ويأمر الإمام أهل بيته وأصحابه بمواصلة المسير إلى أرض العراق من أجل أداء رسالته التي خرج من أجلها واستكمال فصولها، ويواصل ركب الإمام الحسين مسيره إلى المكان الموعود فيصل إلى موضع يقال له «ذو الحسم» وفي هذا الموضع يلتقي الإمام الحسين

---

(١) الأسرار الحسينية / ٣٠٥.

بالحر بن يزيد الرياحي ومعه ألف فارس أرسلهم عبيد الله بن زياد لملاقاة الإمام الحسين، وطلب منهم ملازمته في مسيره، وقد استقبل الإمام الحسين الحر وأصحابه، وقدم لهم ما يحتاجون إليه من الماء، وقد أمر أصحابه بسقاية القوم جميعاً، وحين حل وقت صلاة الظهر أذّن مؤذن الإمام للصلاة ثم صلى الإمام بالفريقين، ولما فرغ الإمام من صلاته اتكأ على قائم سيفه والقى خطابه الأول في مرحلة المسير.

١ـ خطاب الإمام الحسين في أصحابه وأصحاب الحر في ذي الحسم

وقف الإمام بين القوم وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس إنها معذرة إلى الله عزوجل وإليكم، اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم، ان اقدم علينا فانه ليس لدينا إمام لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم اقدم مصركم، وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم»(١).

الناظر في بنية هذا الخطاب يجد أنه بني بأسلوب بسيط التركيب سهل التعبير واضح الدلالة، وهدف الإمام من ذلك أن يكون مفهوماً من جميع المتلقين، وقد بنى أكثر تراكيبه على الأسلوب الشرطي الذي يعد من التراكيب الطويلة ويستلزم فيه حصول الجواب حصول الفعل، ويبدو هذا واضحاً في عدد من تراكيب الخطاب «**لم أقدم... حتى أتتني، فإن كنتم... فقد جئتكم،... فإن تعطوني... دخلت معكم... وإن لم تفعلوا انصرفت...**» ويبدو مما تقدم أنّ أسلوب الشرط يسيطر على بنية هذا الخطاب وهو ما يتطلبه سياق الحال ومقامه الذي قيل فيه، ذلك أن هذا أول خطاب للإمام مع

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٤٠.

أهل الكوفة الذين دعوه للقدوم إلى بلدهم من خلال ما أرسلوه إليه من كتب ووفود وحين قدم إلى بلدهم وجدهم على غير الوجه الذي كانوا عليه فأراد أن يوضح لهم أسباب قدومه إلى هذا البلد، ومن حقهم أن يعرفوا أسباب قدوم الحسين وأهل بيته وأنصاره على افتراض أن عدداً من أفراد هذ الجيش لا يعرفون هذا الأمر وبعضهم لم يعرف أنه قادم لقتال الحسين بن بنت رسول الله، ومن هنا أراد الإمام أن يكشف أمام هؤلاء المخاطبين سواءً من يعرف منهم أم من لا يعرف أنه قدم إلى هذا البلد بدعوة من وجوه القوم فيه، وأنهم أرسلوا إليه كتبهم ورسلهم يطلبون فيها منه القدوم، فهو قادم استجابة لهذه الدعوة من أهل الكوفة وهم شيعة أبيه وأنصاره، وبعد أن أوضح الإمام سبب قدومه لهؤلاء القوم، وضع أمامهم خيارين بناهما على أُسلوب الشرط، وترك لهم اختيار واحد منهما، يقول:

«ان كنتم على ما ورد في كتبكم وعلى لسان رسلكم وأعطيتموني ما يثق به قلبي دخلت معكم... وان كرهتم قدومي وتغيرت أفكاركم انصرفت إلى المكان الذي أقبلت منه».

وقد يخطر في ذهن السامع سؤال: هل حقاً يريد الإمام الانصراف إلى المكان الذي قدم منه، وما المسوغ لطرح مثل هذا الخيار؟، ويكون الجواب بالنفي، فالإمام الحسين لا يريد الرجوع من حيث أتى، وانما أراد من وضع هذا الخيار إلقاء الحجة على هؤلاء القوم الذين قدموا لقتاله، وهو يعرف أنهم لا يملكون القدرة على الاستجابة لمثل هذا الطلب، ويعرف أيضاً أنه يسير إلى مصير قُدِّر له من يوم ولادته ووعده به الله ورسوله، فلا يمكن أن يحيد عنه، ولو افترضنا أنهم سمحوا له بالرجوع إلى حيث يريد فإنه لن يفعل ذلك أبداً، إنما هو ماضٍ لاداء رسالة ولقاء مصير يكون به الخلود الدائم مدى الدهر.

لقد كان الإمام دقيقاً في اختيار الأسلوب الذي بنى عليه تراكيب هذا الخطاب، فقد بدأ خطابه بنداء، لكي يلفت أنظار الجميع لما يريد قوله، وبعد هذا بدأ ببيان ما يريد وهو أنه لم يأت إلى هذا البلد إلا بعد إلحاح شديد من أهله لما أرسلوه إليه من كتب ووفود.

ويستمر مقام الإمام في هذا الموضع، وتحل صلاة العصر ويأمر الإمام بالأذان وإقامة الصلاة، ثم يتقدم الإمام ويصلي بأصحابه وأصحاب الحر، ولما انتهت الصلاة وقف الإمام فحمد الله وأثنى عليه وأسمع القوم خطابه الثاني في هذه المنطقة.

٢ـ خطاب الإمام بعد صلاة العصر في ذي الحسم

بعد انتهاء صلاة العصر التي أمّ الإمام فيه القوم حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد أيها الناس، فإنّكم إنْ تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن رضا الله، وأنا ابن بنت رسول الله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالظلم والعدوان، وإن أنتم كرهتمونا، وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدمت به عليّ رسلكم انصرفت عنكم»(١).

هذا هو الخطاب الثاني للإمام الحسين في اليوم نفسه أمام أصحابه وأصحاب الحر، والناظر في البناء اللغوي لهذا الخطاب يجد أنه جرى على سياق الخطاب الأول من حيث سهولة الألفاظ ووضوح التراكيب، ليكون مفهوماً من جميع السامعين، لكن الخطابين اختلفا في المستوى الدلالي لكل منهما وفي الغرض الذي قصده الإمام في كل منهما، ومن هنا يمكن القول: إن هدف الإمام في الخطاب الثاني يختلف عنه في الخطاب الأول فقد أوضح في الخطاب الأول أسباب قدومه إلى هذا البلد، ليعرفوا الحقيقة من لسان

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٤٠٢.

الإمام نفسه، أما الخطاب الثاني فقد بدأه الإمام ببيان صلته بالرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأشار إلى أنه ابن بنت النبي وابن وصيه، وهو وارث الرسول من أهل البيت في ولاية المسلمين، وكان هدف الإمام من هذا هو تذكير القوم بهذه الصلة وما يترتب عليها من أحكام وإلا فهم يعرفون أنه الحسين بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله.

ويبدو من خلال البنية الدلالية لتراكيب هذا الخطاب أن الإمام أراد من خلال التذكير بهذه الصلة بناء حكم هو أنه بحكم هذه الصلة أحق من غيره بولاية أمور المسلمين وقيادتهم، وهو أحق ممن تولى هذه الأمور الآن، وعطل العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وأشاع الفساد والظلم بين أبناء الأمة الإسلامية، ويمكن أن نلمح من خلال قوله:

«من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالظلم والعدوان».

إشارة إلى حكم يزيد بن معاوية.

وبعد أن بين الإمام ما أراده لهؤلاء القوم دعاهم إلى معرفة الحق واتباع سبيله، ونصرة أهله لأنهم بذلك يكسبون رضا الله سبحانه ورسوله، وبعد أن أوصل الإمام هذه الفكرة إلى الحر وأصحابه أعاد عليهم ما ذكره في خطابه الأول من خيارات مذكراً إياهم بما ورد في كتبهم، وما حمله إليه رسلهم من دعوة للقدوم، وقد أنكر الحر وأصحابه أن يكونوا ممن أرسل إليه رسولاً أو خاطبه بكتاب، وأخبروه أنهم أمروا بملازمته في مسيره، وقد جرى بين الإمام الحسين والحر كلام أمر بعده الإمام الحسين أصحابه بالمسير نحو كربلاء وأمر الحر أصحابه بمسايرة الإمام الحسين، وخاطب الحر الإمام الحسين بقوله: «يا سيدي إني أذكرك الله في نفسك فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، فرد عليه الإمام الحسين:

أبالموت تخوفني؟.

٣ـ خطاب الإمام الحسين ورده على كلام الحر

بعد أن سمع الإمام الحسين ما تقدم ذكره من كلام الحر قال له مستفهماً: أبالموت تخوفني ؟.... ثم قال له:

«ليس من شأني من يخاف الموت، ما أهون الموت على سبيل نيل العز وإحياء الحق، ليس الموت في سبيل العز الا حياة خالدة، وليس الحياة مع الذل الا الموت الذي لا حياة معه، أبالموت تخوفني؟ هيهات طاش سهمك وخاب ظنك، لست أخاف الموت، إن نفسي لأكبر من ذلك، وهمتي لأعلى من أن أحمل الضيم خوفاً من الموت، وهل تقدرون على أكثر من قتلي، مرحباً بالقتل في سبيل الله ولكنكم لا تقدرون على هدم مجدي ومحو عزي، فإذاً لا أُبالي بالقتل»[1].

ان من يدقق النظر في لغة هذا الخطاب وتراكيبه التي بني عليها يجدها تختلف عن لغة الخطابين السابقين، ذلك لأن المقام في هذا الخطاب يختلف عن المقام فيهما، فقد جاء هذا الخطاب رداً على مقولة الحر للإمام: «فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن» وظاهر هذا الكلام أن الحر يخوف الإمام من القتل لذا جاء رد الإمام بهذه القوة فقد بني الخطاب على أسلوب ازدحمت فيه التراكيب المؤكدة بأكثر من أداة توكيد، وتخللها استفهام فيه إنكار شديد لهذه المقولة، وحملت بنية الجمل التركيبية إيحاءات دلالية على التصميم والعزم والقوة في اتخاذ القرار وتخطئة المقابل فيما يظن.

لقد بدأ الإمام خطابه بالتركيز على أمر في غاية الأهمية هو أنه لا يتبادر إلى ذهن أحد أنه يخاف الموت وأنه حين خرج من بلاد الحجاز كان يعرف أنه سوف يقاتل في سبيل الله وأنه سوف يقتل دفاعاً عن الدين وسنة جده، وهذا النوع من الموت هو الذي وصفه الإمام بالموت العزيز، لأن فيه الخلود الدائم والحياة الأبدية، ومن هنا نجد الإمام

(١) اعيان الشيعة ١ / ٥٨١.

يختار هذا الموت ويفضله على الحياة الذليلة، لأن الحياة بذلٍّ هي الموت الذي لا حياة بعده، ويمكن أن نلمح ظلالاً من الدلالة توحي بعزم الإمام الحسين على القتال وملاقاة القوم بمن معه لذا نجده يتساءل بأسلوب الاستفهام الإنكاري يقول للحر:

«**أبالموت تخوفني، هيهات، طاش سهمك وخاب ظنك، لست أخاف الموت**».

إن تخصيص الاستفهام بالموت دون الفعل له دلالة عند الإمام، وبناء التركيب على هذه الصورة يدل على أن الإمام يريد التركيز على هذه الحقيقة «**الموت**» دون غيرها، لذا جعل الاستفهام مسلطاً عليها ليؤكد للمخاطب أنه على خطأ كبير حين يظن أن الإمام يتردد في اقتحام الموت أو يهابه ولذا نجده يستعمل اسم الفعل «**هيهات**» ليفيد مما فيه من دلالته على البعد لما يعتقده المخاطب، لذا نجده يصف المخاطب بقوله: «**طاش سهمك وخاب ظنك**» وهو تعبير يوحي ببعد ما يقوله المخاطب عن الصواب، ومن أجل أن يؤكد الإمام هذه الحقيقة للسامعين استعمل طائفة من التراكيب التي تزدحم بالمؤكدات يقول:

«**إن نفسي لأكبر وهمتي لأعلى من أن أحمل الضيم خوفاً من الموت**».

لقد وصف الإمام نفسه وهمته مستعملاً اسمي التفضيل «**أكبر وأعلى**» وفيهما دلالة على التعظيم والتفضيل وحذف المفضل عليه ليكون الكلام متسعاً يشمل كل شيء، وفضلاً عن ذلك فقد استعمل الإمام مؤكدين في الجملة هما «**إن واللام**» ليعطي التركيب نوعاً من القوة في العزم من خلال هذا الأسلوب المؤكد، وبعد هذا التصميم على لقاء الموت يقرر الإمام الحقيقة النهائية التي يبين فيها أن هؤلاء القوم إن تمكنوا من قتله جسدياً فإنهم لا يمكن أن يقتلوا مجده وعزه وشرفه بين المسلمين، وانه إنْ مات جسده في سبيل الله ستظل روحه حية بين أبناء الامة الإسلامية وسوف يبقى خالداً في ذاكرة التاريخ، وعلى هذا فهو لا يخشى الموت ولا يهاب لقاءه ما دام في هذا الموت

حياة دائمة وعزٌ لا يدانى، وهذا هو الواقع الذي انتهت إليه معركة الطف في كربلاء فقد استطاع الظالمون وأعداء الحسين قتله، وحققوا النصر المادي وكسبوا المعركة على الأرض، أما الحسين فقد انتصر معنوياً وظل خالداً مدى الدهر وزاد عزه ومجده، تقدسه الملايين وتحج إليه قوافل الناس من كل فج عميق، وذهب أعداؤه جميعاً، وما زالت تلاحقهم لعنة الله والتاريخ والناس.

وبعد هذا الحوار مع الحر يواصل الإمام مسيره والحر يسايره حتى يصل إلى منطقة البيضة وفيها يجمع الإمام أصحابه وأصحاب الحر ويلقي فيهم خطاباً يكشف فيه الحقائق والتفاصيل.

٤ـ خطاب الإمام في منطقة البيضة

في منطقة البيضة جمع الإمام أصحابه وأصحاب الحر ثم خطب فيهم قائلاً:

«أيها الناس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله)، الا وان هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيري قد أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم انكم لا تسلموني ولا تخذلوني فان تممتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم فانا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم فلكم في اسوة، وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم فحظكم اخطأتم ونصيبكم

ضيعتم، ومن نكث فانما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١].

لقد وضع الإمام في هذا الخطاب النقاط على الحروف وكشف عن كل الحقائق أمام هؤلاء القوم الذين يسايرونه مبيناً لهم اسباب ثورته بأنها؛ «الظلم والاضطهاد والتجويع وتحريف الدين وتعطيل العمل بكتاب الله وسنة نبيه، واختلاس أموال الأُمة»[٢].

ويبدو مما تقدم أن الإمام بنى خطابه بلغة عالية مستفيداً من المقابلات اللغوية بين الألفاظ مما أكسب الخطاب إيقاعاً موسيقياً له تاثير كبير في المتلقي وهو يشبه الاثر الموسيقي الذي تتركه القوافي في منظوم الكلام، يقول أحد الباحثين:

«يتجلى في الخطاب نهاية منظمة ذات صيغة إيقاعية موحية تجذب النفوس إليها وتشغل الأذهان تتمثل فيما يسمى في الشعر بحرف الروي ويمثله في النص النثري هذا الكاف والميم في (كتبكم، رسلكم، بيعتكم، أنفسكم، أهليكم)، وحرف الياء في (تسلموني، تخذلوني) فهي أشبه بالقافية»[٣].

ويمكن أن نلاحظ أن بنية الخطاب قد اتخذت ترتيباً تصاعدياً في دلالاتها واعتمدت الأسلوب الخبري في أغلب تراكيبها، لأن هدف الإمام من هذا الخطاب هو كشف الحقائق أمام هؤلاء القوم.

بدأ الإمام خطابه بأسلوب النداء المعروف في مثل هذه المواقف، لكي يلفت انتباه الناس إليه ثم نقل بعد النداء مباشرة حديثاً عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٨٠، مقتل الإمام الحسين، الخوارزمي ١ / ٣٣٥.

(٢) ثورة الإمام الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الانسانية / ١٤١.

(٣) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ١٠١.

فيه أمر وتكليف بالوقوف في وجه السلطان الجائر بأية وسيلة ممكنة سواء أكان بالقول أم بالفعل، لأن ما يفعله هذا السلطان هو منكر ومن واجب المسلمين جميعاً الوقوف ضده، وقد جعل ذلك تكليفاً شرعياً ومن يسكت عن ظلم السلطان الجائر ولا يغير عليه بقول أو فعل فانه يتحمل مسؤولية ذلك السكوت أمام الله سبحانه وتعالى، ويبدو أن غرض الإمام من الاحتجاج بهذا الحديث هو تسويغ ثورته وخروجه على حكم يزيد بن معاوية، لأن هذا الخروج يعد امتثالاً لأمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنه يعد واجب التنفيذ والأخذ به تكليف شرعي بحكم ما ورد في القرآن الكريم من أوامر بإطاعة الله وإطاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ذلك أنهم يعيشون في ظل حكم سلطان جائر يظلم الناس ويحكم بغير ما أنزل الله ويغتصب الحقوق ويحل حرام الله ويحلل حرامه، ويقتل النفس المحرمة، وفي كل هذا خروج على سنة الله وسنة الرسول، ومن الواجب عليهم أن يعلنوا ثورتهم ضد هذا الحاكم الظالم، وينصروا أهل الحق وهم أهل بيت النبي ويمثلهم الإمام الحسين نفسه.

وبعد أن بيّن الإمام الحسين الواجب الشرعي المطلوب من هؤلاء القوم دعاهم إلى الالتزام بما امر به الرسول بالوقوف بوجه السلطان الجائر وضح لهم صفات الحكام الجائرين الذين تقتضي سنة الله ورسوله خلع طاعتهم والثورة ضدهم في عدد من المتقابلات اللغوية، «لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، أظهروا الفساد وعطلوا الحدود، أحلوا حرام الله وحرموا حلاله»، لقد أوضحت هذه التقابلات الدلالية بين «**تركوا ولزموا، أحلوا وحرموا، حرام وحلال**» القيم التي تبنى عليها قيم المجتمع الاسلامي، وتبين اهم الاسس التي يجب ان يبنى عليها المجتمع الاسلامي وتتمثل فيما ياتي[(١)]:

(١) ينظر التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ١٣١.

١ . رفض الانصياع للحاكم الجائر والسلطان الظالم والوقوف بوجه الظلم بأي وسيلة ممكنة.

٢ . رفض السكوت على الباطل، لأنه يمثل انحرافاً في بناء المجتمع وضياع الحقوق وانتشار الفساد.

٣ . مقاومة الظالمين بالفعل إنْ كان ممكناً، وبالقول في حال قصر اليد عن مطاولته لقوته وشدة بطشه، لأن كل ذلك يدخل في باب المنكر، وقد دعا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مقاومة هذا النوع من الانحراف بقوله:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإنْ لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان»[(١)].

وبعد أن حدد الإمام للمخاطبين ما يفرضه عليهم الواجب الشرعي والديني من موقف تجاه الواقع الظالم الذي يعيشون فيه، وما يفرضه عليهم الحكام الجائرون، بين لهم أنه الحسين بن علي بن أبي طالب وأُمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله وهو أحق أن يتبع، لأن أهل بيت النبوة هم أولى الناس بقيادة الأمة الإسلامية، ولكي يبدد الإمام الخوف من سطوة السلطان الجائر من نفوس القوم بيّن لهم أنّ نفسه مع نفوسهم وأهله مع أهلهم ولهم فيه أسوة حسنة، وقد استعمل الإمام التراكيب الاسمية للدلالة على ثبات هذا الأمر في نفس الإمام فهو معهم في السراء والضراء، ثم ذكّرهم الإمام بما عقدوه له من بيعة في أعناقهم وما حملته إليه كتبهم ورسلهم من عهود ومواثيق على هذه البيعة وطلبهم منه القدوم إلى هذا البلد، وفي نهاية هذا الخطاب لجأ الإمام إلى استعمال اسلوب الشرط ليقف من خلاله على ما ينوي القوم فعله وما يمكن أن يتخذه من قرار يقول:

---

(١) مسند احمد ٢ / ١٦٥.

«فإن تممتم بيعتي تصيبوا رشدكم... وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي بنكر...».

لقد حدد الإمام من خلال التركيبين الشرطيين لهؤلاء القوم انه سيدخل بلدهم أن أتموا بيعتهم وصدقوا في عهودهم، وإن كانت الأخرى ونقضوا ما عاهدوا عليه فلا يستغرب الإمام هذا الموقف منهم ابداً فقد غدروا قبله بأبيه وأخيه وابن عمه مسلم بن عقيل، فلا غرابة أن يغدروا به وينقضوا ما عاهدوه عليه في كتبهم ورسائلهم.

لقد قال الإمام في هذا الخطاب ما أراد قوله، ووضع النقاط على الحروف لكي لا يبقى عذر لمعتذر ولا حجة لهم عليه. ذكّرهم بأنهم في موقفهم هذا هم الخاسرون في الدنيا والآخرة والمغرور من أغتر بهم فقد أخطأوا حظهم وأضاعوا نصيبهم وسوف يغنيه الله عنهم، وقد استعمل الإمام أسلوب التقديم والتأخير للتركيز على خسرانهم الدنيا والآخرة فقد قدم المفعول به على الفعل والفاعل يقول: «فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم» والهدف من هذا التقديم هو الاهتمام والعناية بما قدم، لأن خسرانه يعني الخسران المبين، وقد ختم الإمام خطابه بآية من آيات القرآن الكريم لها دلالة واضحة عند السامعين هي أن من يرتد وينكث ما عاهد عليه ويتخلى عن نصرة إمامه إنما يرتد على نفسه وهو في الآخرة من الخاسرين، وسوف يغنيه الله عنهم.

لقد كان هذا الخطاب حداً فاصلاً بين الحق والباطل وفيه بيان واضح للحق وأهله والباطل وأهله ونصيب كل منهم في الدنيا والآخرة.

وتستمر مسيرة الإمام الحسين والقوم يسايرونه ويصل الإمام إلى مكان يقال له «عذيب الهجانات» وفيه يلتقي بالطرماح بن عدي ومعه رجال، ويخبرونه بمقتل رسوله إلى أهل الكوفة قيس بن مسهر الصيداوي الذي قبض عليه الحصين بن نمير وسلمه إلى عبيد الله بن زياد ليضرب عنقه، وحين سألهم عن حال الناس أخبروه عن الاستعدادات

الكبيرة وتجهيز الجيوش لقتاله، ويسترجع الإمام كثيراً ويترحم على شهداء المسيرة الحسينية، ثم يواصل مسيره فيجتاز الركب منطقة تسمى أقساس مالك ثم الرهيمة، ويصل إلى قصر بني مقاتل ويلتقي هناك بعبيد الله بن الحر الجعفي وهو من فرسان العرب ويدعوه الإمام الحسين إلى نصرته فلم يستجب لدعوة الإمام وعرض عليه أن يعطيه فرسه وهي من الجياد فيقول له الإمام:

«**اذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا بفرسك**».

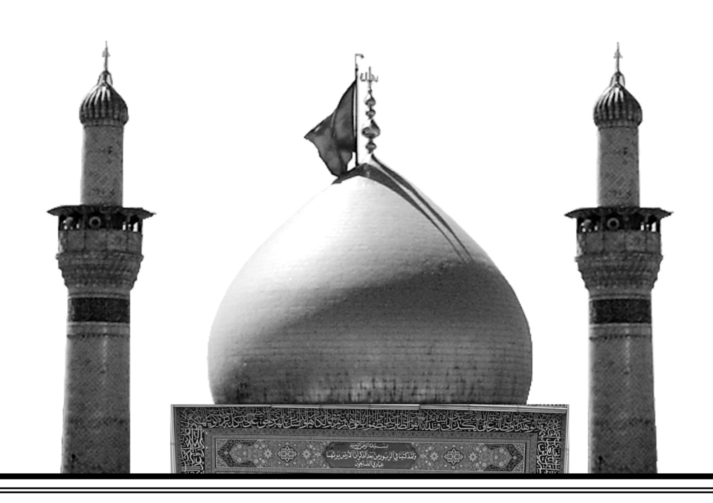
وقد ندم هذا الرجل بعد مقتل الإمام الحسين على ما فعله بنفسه، وقد عبر عن ذلك بأبيات من الشعر منها.

فيالك حسرة ما دمت حياً ... تردد بين صدري والتراقي

حسين حين يطلب نصر مثلي ... على أهل العداوة والشقاق

ويستمر الإمام في مسيره من قصر بني مقاتل والحر يسايره حتى يصل إلى أرض كربلاء ويصل الأمر إلى الحر وأصحابه بأن يحبس الحسين في المكان الذي هو فيه، وتكون أرض كربلاء نهاية مسير الإمام فقد أمر أصحابه بالنزول في هذه الأرض بعد أن سأل عن اسمها وعرف أنها الأرض التي وعده جده بها.

لقد مثل خطاب الإمام الحسين في مرحلته الثانية جانباً من جوانب الاحتجاج عند الإمام الحسين على هؤلاء القوم وتضمن إشارات واضحة إلى تذكير القوم بما عقدوه من عهود في كتبهم التي أرسلوها إليه ودعوه فيها إلى القدوم إلى بلدهم.



الفصل الرابع

الخطاب الحسيني في أرض كربلاء

مدخل

اللّه! اي دم في كــــربلا ســـــفكا؟! لم يجر في الأرض حتى أوقف الفلكا

كربلاء الأرض التي اختارها الله ليعمدها بدم الإمام الحسين وأصحابه، الأرض التي اختارها الله لتجري عليها أعظم مأساة عرفها تاريخ الإنسانية، الأرض التي اختارها ليكون عليها مصرع سيد الشهداء وأهل بيته وأصحابه.

الأرض التي اختارها الله لتجري على ترابها أكبر معركة عرفها تاريخ الدنيا بين الحق والباطل.

الأرض التي اختارها الله لتقطع عليها سيوف الظالمين جسد أبي عبد الله الحسين.

الأرض التي اختارها الله لتضم رفات الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه.

الأرض التي اختارها الله لتكون مقدسة على مر العصور والدهور إلى يوم الدين.

الأرض التي اختارها الله لتكون خالدة على كل لسان وتكون قبلة للوافدين والزائرين من كل أقطار الدنيا.

كربلاء الأرض التي انطلقت منها أعظم ثورة في تاريخ الدنيا لتنتهي بانتصار الحق على الباطل والدم على السيف.

كربلاء الأرض التي انطلقت منها صرخة الإمام الحسين فاهتزت لها أركان السموات والأرض.

«اما من مغيث يغيثنا، اما من ذاب يذب عن حرم رسول الله».

يصل الركب الحسيني إلى هذه الأرض، وهو يضم الحسين وأهل بيته وأنصاره وعياله، ويتوقف جواد الإمام في هذا المكان ويتوقف الركب ويسأل الإمام الحسين (عليه السلام) عن اسم هذه الأرض، فيذكر له أصحابه عدداً من أسمائها، قيل اسمها شاطئ الفرات، وقيل الغاضرية، وقيل نينوى... والإمام يقول هل لها اسم غير هذا؟ فيقولون اسمها كربلاء، ويتنفس الإمام الصعداء، ويأخذ قبضة من ترابها وينظر إليه ويقول: إنا لله وإنّا إليه راجعون، ثم يأمر أصحابه بالنزول فيها وبناء خيامهم على أرضها ويقول:

«لا ترحلوا منها، ها هنا والله مناخ ركابنا، ها هنا والله سفك دمائنا، ها هنا والله ذبح أطفالنا، ها هنا والله موضع قبورنا، وبهذه التربة وعدني جدي رسول الله ولا خلف لقوله»[1].

هذه إذن هي الأرض التي وعد الله ورسوله الإمام الحسين بها، وهذه الأرض هي التي شد الإمام رحاله إليها من الحجاز وقطع المسافات الطويلة إليها ليكون فيها مقامه الأخير، وهذه الأرض هي التي أشار إليها الإمام الحسين في أول خطاب قبل خروجه من مكة المكرمة.

«كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء».

وهي الأرض التي أمر الحسين ركبه بالنزول فيها، لأن جده وعده بها وحين ننظر إلى تراكيب هذه القطعة التي قالها الإمام حين وطئت قدماه تراب كربلاء، نجد أن كل كلمة من كلماته تحمل في بنيتها شحنة من الحزن العميق، وكل تركيب من تراكيبه تتفجر منه تباريح الألم الممض الذي يترك أثراً واضحاً في نفوس السامعين، ويشعر المتلقي وهو يسمع تراكيب هذا الخطاب وبناء الجمل التي اعتمدت على التكرار ان طابع

(١) الاسرار الحسينية / ٣٣٢.

النعي والنهاية المأساوية هو الذي يسيطر على لغة هذا الخطاب وتوحي تعبيرات الخطاب بظلال من المعاني فيها دلالة على أن الإمام الحسين ينعى نفسه وأهل بيته وأنصاره، ويؤكد ما ورد في هذا الخطاب أن هذا المكان هو محل استشهادهم جميعاً، ويخال من يسمع هذه التراكيب الحزينة ان كل حجر ومدر وشجر يرددها مع الإمام (عليه السلام)، وأن صداها يتردد في أقطار السموات والأرض، ويحسب من يسمع صوت الإمام وهو يردد هذه التراكيب المتماثلة برهبة تبعث الخشوع والألم والحزن والتعاطف في قلوب السامعين الا قلوب القساة الجفاة من جيوش الامويين وأتباعهم، وقد ساعد على إضفاء هذا الطابع الحزين على الخطاب الكلمات التي اختارها الإمام ليؤلف منها تراكيبه وطريقة الصياغة التي استعملها في بناء هذه التراكيب، وطبيعة التكرار في كل مقطع من المقاطع التي يتألف منها، ومن ينظر في السياق العام للخطاب يجد ان كل تركيب من هذه التراكيب يبدأ بصوت الهاء الذي يتباعد مخرجه في أقصى الحلق وفيه صفة الهمس التي توحي بالهدوء وبعده صوت مد طويل هو الالف الذي يمنح كل تركيب مساحة واسعة من الامتداد تسمح بالحرية في مد الصوت إلى ابعد ما يمكن من المسافة، وينتهي التركيب بصوت النون الذي تسهم الشفتان في إنتاجه وفيه نوع من الغنة يتبعه صوت مد طويل هو الالف «**رجالنا ـ دمائنا ـ أطفالنا...**» وهذا النوع من التراكيب يولد عند سماعه نغماً حزيناً يشبه صوت النعي أو الانين عند مد الصوت، فيترك أثراً قوياً في نفوس السامعين وقد أسهمت صفة التكرار في كل تركيب في توليد هذا الأثر المحزن، لأن فيها ما يشبه الإيحاء باليأس والرضا بالقضاء، «**ها هنا مناخ ركابنا... ها هنا سفك دمائنا... ها هنا سبي نسائنا...**».

وفضلاً عما تقدم فإن ظاهرة التكرار في تراكيب الخطاب وإعادة مقطع محدد في كل تركيب يوحي بنوع من الإلحاح لتأكيد أمر محدد يريد الإمام التعبير عنه وهو أن هذه

الأرض هي مثواه الأخير هو وأصحابه، وقد منح هذا التكرار الخطاب توكيداً و تثبيتاً في نفوس السامعين.

لقد تكرر اسم الإشارة «**ها هنا**» في كل تركيب ليمثل القرار الثابت في النزول بهذا المكان، وتكرر القسم بلفظ الجلالة ليزيد الأمر قوة وثباتاً، ويوحي برهبة الموقف وعظمته، ولكي يتخذ سياق الخطاب دلالته على الثبات استعمل الإمام التراكيب الاسمية في بنية خطابه بدلاً من التراكيب الفعلية، فقد ورد في الخطاب «**مناخ، وسفك، وذبح، وقتل**» بدلاً من «**تناخ، وتسفك، وتهتك**»(١).

هكذا بدأ الإمام في أول يوم وطئت فيه قدماه أرض كربلاء، لقد رسم الإمام في هذا الخطاب القصير، أصدق صورة ناطقة لما سيجري على هذه الأرض بعد حين، وكل تركيب من تراكيبه يجسد لنا مشهداً من مشاهد هذه الصورة الحزينة، وتكتمل هذه المشاهد لترسم لنا صورة حسية تمثل أعظم مأساة في تاريخ الانسانية.

«**ركاب تناخ، أجساد طاهرة تمزقها سيوف الظالمين، أطفال تذبح، حرمات تنتهك، نساء تسبى، دماء تعمد تراب الأرض، صدور تداس بحوافر الخيل، رؤوس تقطع، أجساد تكفنها الذاريات، أطفال تتيه في الفلوات، خيام تشتعل فيها النيران...**».

لوحة تؤلفها طائفة من المشاهد المؤلمة التي يتبع بعضها بعضاً وهي ترسم بعد اكتمال أبعادها صورة لأعظم مأساة عرفتها الإنسانية وانتهت باستشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره لينالوا الخلود الدائم وتنتصر دماؤهم على سيوف أعدائهم، وأزعم أن هذه الصورة التي رسمها الإمام في هذا الخطاب القصير لا يستطيع تجسيدها أي فنان على وجه الأرض، ولا يحيط بتصوير مشاهدها الأدباء والشعراء في هذه الدنيا.

---

(١) ورد هذا الخطاب في بعض الروايات بالصيغ الفعلية والأرجح ما ذكرناه.

وينزل الإمام الحسين وأصحابه في كربلاء، وتنصب خيامهم وفي المكان نفسه نزلت جيوش أعدائه من خيل ورجال وهي في كامل عدها للقتال وتقرع طبول الحرب وهم عازمون على قتل الإمام الحسين ومن معه، وفي هذا الجو الذي تعصف فيه رياح الحرب من كل جانب وتسمع فيه قعقعة السلاح في كل مكان، رأى الإمام أن واجبه الشرعي يحتم عليه نصح هؤلاء القوم الذين استحوذ عليهم الشيطان، وأن يبين لأهل بيته وأصحابه ما ينتظرهم من الأمر ويعرض عليهم النجاة بأنفسهم ويخبرهم أنهم في حل من بيعته وأن القوم لم يطلبوا غيره، وقد أراد الإمام من خلال ذلك أن يأذن لمن أراد أن ينجو بنفسه منهم ويجعله في حل من أمره ولا ذمام عليه، وهذا الليل قد أرخى سدوله فليتخذه جملاً، ومن أجل هذا جمع أصحابه وأهل بيته وقام فيهم خطيباً.

١ـ خطاب الإمام بأصحابه في كربلاء

نزل الإمام الحسين وأصحابه وأهل بيته في أرض كربلاء، وأمر بنصب خيامه فيها، ونزل في مقابلته جيش الأعداء الذين جمعوا لقتاله، ولما رأى الإمام الحسين عزم القوم على قتاله جمع أهل بيته وأصحابه وقام فيهم خطيباً، قال:

«أُثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا اسماعاً وابصاراً وافئدة ولم تجعلنا من المشركين، أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا أخير من أصحابي، ولا أهل بيت ابر ولا اوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني خيراً، الا واني لاظن يومنا مع هؤلاء الاعداء غداً الا واني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم حرج مني ولا ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وذروني وهؤلاء القوم فإنهم لا يطلبون غيري ولو أصابوني وقدروا على قتلي لما طلبوكم»[(١)].

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣١٥.

تتجلى في هذا الخطاب مسؤولية القائد وحكمته، ونظرته الإنسانية في أصعب الظروف، فالإمام الحسين حين خرج من مكة إلى العراق كان أهل العراق قد كاتبوه وعقدوا له البيعة وطلبوا منه القدوم إلى بلدهم وحين وصل إليهم رسول الإمام مسلم بن عقيل أعلنوا بيعتهم أمامه.

لكن هذا الأمر لم يدم طويلاً فقد جرت في المنطقة تغيرات جعلت كثيراً من أهل الكوفة ينقضون بيعتهم للإمام، وجرت الأمور بعكس ما يريد الإمام الحسين، وقتل رسوله مسلم بن عقيل وأعدت الجيوش لقتله هو وأصحابه، ومن هنا رأى الإمام أن يبين لأهل بيته وأصحابه ما ينتظرهم من مصير، فقد يكون بينهم من لايرتضي هذا المصير، فكان هذا الخطاب.

بدا الإمام في خطابه هادئاً راضياً بالمصير الذي يلاقيه، وقد استعمل التراكيب الواضحة في دلالتها والتي تكون في متناول فهم الجميع بدأ الخطاب بحمد الله والثناء عليه أحسن الثناء وانه محمود في السراء والضراء ثم انتقل الإمام إلى ذكر ما أنعم الله عليهم من نعم، وما خصهم به من صفات، وقد استعمل الجمل القصيرة التي تبدأ بالصيغ الفعلية ليعبر من خلالها عن الاستمرار والتجدد في هذه النعم، وهكذا بدأت تراكيب الجمل «**أكرمتنا، علمتنا، فقهتنا، جعلت لنا**...» وهكذا ترد هذه الأفضال التي خصهم بها الله يتبع بعضها بعضاً، وقد أشار الإمام إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل لعباده أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ليسمعوا ما يقال ويبصروا ما يجري أمامهم ثم يتفكروا فيما سمعوا وأبصروا ليهتدوا إلى معرفة الحق واتباعه.

كل هذا كان مقدمة لما يريد الإمام بيانه لأصحابه وأهل بيته، وبعد هذه المقدمة التي بدأ بها الإمام خطابه، انتقل إلى الثناء على أصحابه وأهل بيته فوصفهم بأنهم أوفى الأصحاب وأخيرهم وأبر أهل بيت وأوصلهم.

«**فأني لا أعلم أصحاباً أوفى وأخير من أصحابي، ولا أهل بيت أبر وأوصل من أهل بيتي**».

إن هذه الشهادة بحق هؤلاء الأصحاب من إمام عصرهم ووارث الرسول الأعظم تعد أعظم شهادة لهؤلاء بالوفاء والصدق والبر وصلة الأرحام. وهي وسام ظل يزين صدورهم إلى يومنا هذا.

لقد بنى الإمام تراكيب هذه الفقرة من خطابه على أسلوب التفضيل، فقد ورد فيها على قصرها أربع صيغ على وزن أفعل الذي يفيد التفضيل، وقد وردت هذه الصيغ بحالة التنكير لتدل على العموم والاتساع في تفضيل هؤلاء الأهل والأصحاب على غيرهم من أمثالهم في كل الدنيا، وقد أراد الإمام من خلال إيراد هذه الصيغ «**أوفى، وأخير، وأبر، وأوفى**» الدلالة على عظم ما يحمله أصحابه وأهل بيته من هذه الصفات، وقد كان الإمام دقيقاً في استعمال صيغ التفضيل في هذه التراكيب، فالبر وصلة الأرحام من لوازم الأهل وصفاتهم، وقد أوصى الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ببر الوالدين وصلة الأرحام، وجعل ذلك تكليفاً شرعياً على المسلمين، لذا وصف الإمام أهل بيته بأنهم «**أبر وأوصل**» تفضيلاً لهم على غيرهم ممن يحمل صفة الأهل، أما الوفاء والخير فمن لوازم الصحبة، ومن هنا جاء وصف الإمام لأصحابه بأنهم أوفى وأخير من غيرهم ممن يحمل صفة الأصحاب، ومن الملاحظ أن الإمام قد استعمل اسم التفضيل «**أخير**» على خلاف ما ورد في الاستعمال الشائع وهو «**خير**» بحذف الهمزة لكثرة الاستعمال، وربما أراد الإمام من هذا الاستعمال مجانسة الصيغ التي وردت في هذا السياق وكلها تبدأ بالهمزة «**أبر أوفى ـ أوصل**» ويبدو أن الإمام قدم الأصحاب على الأهل لمغزى دلالي، هو أن الأهل أكثر لزوماً لمن ينتمي إليهم من الأصحاب، ومن هنا جاء تقديم الأصحاب اهتماماً وإكباراً بموقفهم العظيم.

وبعد ثناء الإمام على أصحابه وأهل بيته أخبرهم أن المعركة مع هؤلاء القوم أمر لا مناص منه، وقد استعمل الإمام أسلوب التوكيد لتثبيت وقوع المعركة (اني لأظن..) وقال لهم إن القوم لا يطلبون غيره فمن أراد أن ينجو بنفسه فهو في حل من أمر الإمام ولا حرج ولا ذمام عليه في ذلك. فمن شاء ذلك فليتخذ الليل جملاً ويخرج من ميدان الحرب، وقد أذنت لكم جميعاً بالانصراف، لقد استعمل الإمام تعبيراً استعارياً جميلاً لتصوير كيفية الانصراف لمن يشاء منهم مستمداً هذه الصورة من أمثال العرب يقول:

«وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً».

يقول أحد الباحثين: إن الإمام «وضع لهم الواسطة التي يتفرقون بها من حوله، وهي سواد الليل، فسيكون لهم كالجمل في القدرة على حملهم إلى بر الأمان بالرغم من الصعاب وخطورة الطريق»[(١)].

قال الإمام هذا الكلام لأهل بيته ولأصحابه وهو يعلم أنّ أحداً منهم لايمكن أن يفعل ذلك، ويعلم أن مصيرهم قد ارتبط بمصيره ولا يمكن لأحد أن يتصور أنّ واحداً منهم يفكر في مفارقة الإمام ويختار الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ولا أحداً منهم يفضل الفناء على الخلود الأبدي، وهكذا جاء ردهم جميعاً أنهم يختارون الموت معه على الحياة مع هؤلاء الظالمين، وهو قرار سيدهم وإمامهم:

«لا أرى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما».

وقد كان لهم ما أرادوا فكانوا من الفائزين في الدنيا والأخرة، وأصبحوا من الخالدين حتى صار موتهم أُمنية كل الأحياء والأموات ليفوزوا الفوز العظيم وكل منهم يردد:

﴿يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ النساء/٧٣.

---

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية /٤٩.

٢ـ خطاب الإمام الحسين في جيوش الأعداء

بعد خطاب الإمام في أهل بيته وأصحابه بدأت جيوش الامويين تزحف نحو معسكر الإمام الحسين، واتخذت مكاناً مقابلاً للإمام وأصحابه، وكانت بأعداد كبيرة بلغت آلاف الرجال والفرسان يقودها عمر بن سعد بن أبي وقاص، ويشرف على مجموعاتها عدد من فرسان أهل الكوفة المعروفين، وكانت هذه الجيوش على اهبة الاستعداد للقتال ومجهزة بأنواع الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، وقد ازدحمت في أرض كربلاء أجواء القتال والمعارك فأصبحت تسمع فيها حمحمة الخيول وهمهمة الرجال وقعقعة السلاح وقرع طبول الحرب والقتال، وفي مثل هذا الموقف الذي تهب فيه رياح الحرب من كل صوب، وترتفع فيه رايات القتال، رأى الإمام الحسين بحكم مسؤوليته الشرعية بوصفه إمام العصر ومن أهل بيت النبوة أن ينصح هؤلاء القوم ويبين لهم أنّ مايريدون الإقدام عليه وما يدفعهم إليه قادتهم وأمراؤهم من عمل هو خطأ كبير، وانهم حين يقدمون على قتاله سوف يرتكبون اثماً كبيراً ويغضبون الله ورسوله، وانهم سوف يخسرون الدنيا والآخرة اذا ما أقدموا على قتله، كل هذا أراد الإمام بيانه للقوم انطلاقاً من مبادئ الدين الإسلامي الذي يؤمن به الجميع ومن حق المسلم على المسلم فيه النصيحة. وهكذا وقف الإمام الحسين عليه السلام، أمام جيوش الأعداء ووجه نداءه إليهم بأسلوب مؤثر تخشع له القلوب ويستفز العواطف ويخاطب العقول لعل فيها بقية من دين فيردع النفوس عن غيها ويكبح نزعة الشر التي انطوت عليها نفوس المخاطبين الذين أصبحوا ضحايا للزيف والخداع والكذب الذي مارسه ساداتهم لينالوا سخط الله وغضبه ويخسروا الدنيا والآخرة. وقف الإمام بين العسكرين فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه ثم نادى بأعلى صوته ليسمعه الجميع.

«أيها الناس اسمعوا قولي ولاتعجلوا حتى أعظكم بما هو حق لكم علي، وحتى أعتذر إلى الله وإليكم عن مقدمي عليكم فإن قبلتم عذري وصدقتم

قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم».

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يونس/٧١ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الاعراف/١٩٦.

فلما سمعت النساء من أهل بيته ارتفعت أصواتهن بالبكاء فأرسل إليهن من يسكتهن فلما سكتن، حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد والملائكة والأنبياء، وقال في ذلك ما لا يحصى ذكره، ولم يسمع متكلم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه[١]، ثم واصل خطابه قائلاً:

«الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرته والشقي من فتنته، فلا تغرنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم وأحلّ بكم نقمته، وجنبكم رحمته، فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم انكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، وقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، هؤلاء قوم قد كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين[٢]، أيّها الناس انسبوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟.

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٤٢.

(٢) مقتل الإمام الحسين، الخوارزمي / ٣٤٥.

ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه، وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه، أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أو ليس جعفر الطيار عمي، أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي (هذان سيدا شباب أهل الجنة) فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق، فوالله ما تعمدت الكذب مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه، وان كذبتموني فإنّ فيكم مَنْ إنْ سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي الحسن، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي».

فقال له الشمر بن ذي الجوشن: أنا أعبد الله على حرف إنْ كنت أدري ما تقول، فقال الإمام الحسين:

«فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أني ابن بنت نبيكم ؟، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو بمال لكم استهلكته او بقصاص جراحة، ثم نادى يا شبث بن ربعي ويا حجار بن ابجر ويا قيس بن الاشعث ويا زيد بن الحارث... ألم تكتبوا إليّ، أن اقدم علينا قد اينعت الثمار واخضر الجناب وانما تقدم على جنود لك مجندة... قالوا لم نفعل قال الإمام: سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم ثم قال: ايها الناس اذا كرهتموني فدعوني انصرف عنكم إلى مأمني من الأرض، فقال له قيس بن الاشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك... فقال الإمام الحسين (عليه السلام): أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟، والله لا اعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا اقر اقرار العبيد)[1]،

---

(١) في بعض النسخ (فرار) بالفاء وما أثبتناه هو الصواب.

عبـــاد الله ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ **الـــدخان / ٢٠**. ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ **المؤمن / ٢٧**[1].

نقلت نص هذا الخطاب وما تخلله من حوارات كاملاً لأنه قيل في مقام واحد أراد الإمام أن يبين فيه للمخاطبين طائفة من الأغراض على وفق ترتيب محدد وتحدث عن أمور عدة قصد إيضاحها.

بدأ الإمام خطابه بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، ثم وجه نداءه إلى هؤلاء القوم بقوله «**أيها الناس**» ثم اتبع النداء بعدد من الأساليب الإنشائية، وكان أسلوب الطلب هو المهيمن على القسم الأول من خطابه، لأن المقام الذي قيل فيه الخطاب وغرض الإمام منه يتطلبان هذا النوع من التراكيب، فالإمام أراد أن يعظ القوم بما هو حق لهم عليه بوصفهم مسلمين وهو إمام عصرهم، فقد جاء بعد النداء «**اسمعوا، لا تعجلوا**» وغرض الإمام من هذا هو تهيأة القوم لسماع ما يريد قوله وما يريد ان يعظهم به، ويأتي قوله «**أعظكم بما هو حق لكم علي**» من كونه إماماً مفترض الطاعة ومن أهل البيت فمن حق هؤلاء القوم وهم يدينون بدين جده أن ينصحهم ويبصرهم بعاقبة ما يريدون الإقدام عليه من عمل، ويأتي هذا من باب تطبيق مبادئ الدين الإسلامي في مثل هذه المواقف وإلقاء الحجة عليهم وهم أحرار في قبول ما يقول أو رفضه.

وبعد هذا المدخل انتقل الإمام إلى أمر آخر هو تقديم العذر عن مقدمه إلى هذا البلد وقد بنى هذه الفقرة من خطابه على أسلوب الشرط الذي يرتبط فيه طرفا الخطاب «**فان قبلتم عذري... كنتم أسعد، وإنْ لم تقبلوا... فأجمعوا...**»، ويبدو من خلال أسلوب الشرط الذي بنى عليه الإمام هذه الفقرة من خطابه أنه قدم العذر

(١) انساب الاشراف ٣ / ١٨٨، وينظر الكامل ٣ / ٢٨٧.

عن قدومه إلى هذا البلد وقبوله دعوة أهلها، فإن قبلوا ذلك منه كانوا أسعد في دنياهم وآخرهم، وإن لم يقبلوا ذلك فهو مستعد للقتال والدفاع عن أهدافه، يبدو ذلك واضحاً من خلال الآية التي مثلت جواب الشرط «**فأجمعوا أمركم وشركاءكم**...» لقد أراد الإمام من هذا إلقاء الحجة على هؤلاء القوم وهو يعرف أنهم لا يقبلون منه ذلك لأن الأمر ليس في أيديهم إنما هم أداة تنفيذ ولديهم خيار آخر هو النزول على حكم الامويين وقد عبر عن ذلك قيس بن الاشعث في حواره مع الإمام أو القتال حتى الموت، وقد تقدمت الإشارة إلى أن الإمام لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يبايع يزيد مهما كانت النتائج، وقد أعلن ذلك صراحة في كلامه مع والي المدينة، ومن هنا لم يكن أمامه بد من القتال والإمام الحسين حين خاطب القوم بهذا الأسلوب إنما يخاطب قوماً كاتبوه وبايعوه ودعوه إلى القدوم ثم نقضوا بيعتهم وتحللوا من عهودهم وجاءوا لقتاله، ومن هنا جاء بناء تراكيب هذه الفقرة على الأسلوب الشرطي الذي يقتضي فعلاً وجواباً وأداة تربط بينهما تجعل زمن السياق مستقبلاً، والإمام الحسين حين ذكر هذه الأمور لا يريد منها استعطاف القوم أو تغيير نواياهم، لأنه يعرف أنه جاء إلى هذه الأرض ليلاقي المصير الذي وعده به الله ورسوله ويعرف أيضاً أن القوم لن يقبلوا بما طلبه منهم لذا اتخذ قراره الحاسم باختيار القتال، ويدل على هذا الاختيار الآيتان اللتان ختم بهما هذه الفقرة من خطابه وبكت النسوة عند سماعها.

وبعد إعلان الإمام اختيار القتال في حال رفض القوم إنصافه وقبول ما يطلبه، انتقل إلى موضوع آخر له صلة بما بدأ به خطابه من وعظ وإرشاد، ذلك انه يعرف انه تهالك القوم على قتاله والخروج عن طاعة الله ورسوله كله من أجل حطام الدنيا ورغبة في إرضاء نزعة الشر عند ولاة الأمر من الامويين، ومن هنا أراد الإمام أن ينبه

هؤلاء القوم إلى نهاية هذه الدنيا، وقد رسم لهم من خلال تراكيب خطابه صورة هذه الدنيا التي غرتهم فنسوا طاعة الله الذي خلقها وخلقهم لكي يتعظ من يتعظ قال:

«**الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال فالمغرور من غرته، والشقي من فتنته، فلا تغركم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها**».

لقد بنى الإمام تراكيب هذه الفقرة من خطابه بأسلوب يتسم بوضوح الايقاع الموسيقي في مقاطعه، لكي يكون أكثر تأثيراً في نفس السامع من خلال ما يبعثه من موسيقى في فواصله «**زوال ـ حال ـ غرته ـ فتنته ـ إليها ـ فيها**»، ونلحظ ان الإمام استعمل ما يسمى بأسلوب «التشخيص» عند المحدثين في رسم صورة محسوسة لهذه الدنيا، فقد أضفى صفات المحسوسات على المعنويات، وجاء التعبير عن هذه الصورة بعبارات ذات موسيقى هادئة ينبعث منها نغم مؤثر يأخذ بالأسماع ويدخل القلوب بلا استئذان، يقول أحد الباحثين:

«إذ أصبحت الدنيا بفضل التصوير الفني من المحسوسات التي تشارك الناس حياتهم اليومية من خلال إيهام المتلقي بمشاهدتها والاحساس بها حتى تكون الصورة أكثر قدرة على نقل المعنى وتوكيده، فاتخذ المنشىء من التشخيص وسيلة لتحقيق الآثار النفسية بنقل الدنيا من عالمها المعنوي إلى المحسوس فهي تغر وتخدع وتفتن وتخيب...»[(١)].

لقد جسد الإمام في هذه الكلمات صورة متحركة للدنيا يحس بها كل من يسمعها، فقد أضفى الإمام على صورة الدنيا من صفات البشر ما يقربها إلى أذهان

---

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ١١٨، وينظر الاسس الفنية لاساليب البلاغة العربية/١٨٨.

السامعين، ويعزز هذه الصورة ويزيدها صدقاً ما يحدث في واقع الحياة الذي يعيشه هؤلاء القوم أنفسهم، فهم يرون أنها لا تثبت على حال ولا تدوم لأحد مهما كان سلطانه وقوته، وكل شيء فيها إلى زوال وفناء، والعاقل هو الذي يأخذ العبرة من غيره مما يحدث في هذه الدنيا، ويصرف همه عنها ولا يركن إليها ويطمع فيها، والخاسر من يشتري داراً مصيرها الفناء والزوال، وهكذا وضع الإمام الحسين هذه الصورة المؤلمة للدنيا، لكي ينتبهوا إلى ما يقومون به من عمل من أجل هذه الدنيا، فهي لا تستحق أن يرتكب الإنسان من أجلها المعاصي فيخسر الدنيا والآخرة، ويبوء بغضب الله وسخطه، ويبدو واضحاً تأثر الإمام بما ورد من وصف للدنيا في كلام أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقد رسم حال الدنيا بمثل هذه الصورة[١]، وبعد أن بين الإمام حال الدنيا وطبيعتها لهؤلاء القوم انتقل إلى أمر آخر هو ما يريد هؤلاء القوم الإقدام عليه من أجل هذه الدنيا التي تقدمت صفتها لكي ينتبهوا إلى نتيجة هذا العمل، يقول:

«وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحل بكم نقمته وجنبكم رحمته، فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد ثم انكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، وقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، هؤلاء قوم قد كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين»[٢].

الناظر في هذه القطعة من الخطاب يجد أن تراكيبها بنيت في أغلبها على التراكيب الفعلية التي توحي بالتجدد والحدوث، وبدت الجمل فيها بأبعاد محددة لتكون سهلة الادراك عند السامعين، لأن مقام الكلام يتطلب هذه السهولة ليكون الكلام مفهوماً

(١) ينظر نهج البلاغة ١ / ٢٢١.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٤٢.

من جميع السامعين، ذلك أن الإمام أراد أن يوضح خطورة الأمر الذي اجتمع هؤلاء القوم من أجله، لأن فيه ما يغضب الله ورسوله، وإذا استمر هؤلاء القوم في تنفيذ ما أمر به ولاتهم الظالمون فسوف يحل عليهم غضب الله وسخطه ويجنبهم رحمته، وقد اعتمد الإمام بنية الفعل الماضي لتأكيد أن ما يقوله واقع لا محاله «**أعرض ـ أحل ـ جنّب**» واستعمال الفعل الماضي في مثل هذا السياق فيه دلالة على حتمية وقوع الحدث الذي ذكره الإمام من إعراض الله عنهم وسخطه عليهم وإحلال نقمته عليهم... ويشبه هذا ما ورد في قوله تعالى:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ النحل / ١.

فهو آتٍ لا محالة... ثم يستعمل الإمام أسلوب المدح والذم من خلال استعمال الفعلين «**نعم وبئس**» فالله نعم الرب، وهو ربنا الذي هدانا وأنعم علينا، أمّا هؤلاء القوم فبئس العبيد هم، لأنهم عصوا أمر ربهم وخالفوا رسولهم وحرموا الحلال، وأحلوا الحرام، واتبعوا الظالمين، ونصروا الحاكم الجائر وتخلوا عن أهل بيت النبوة، ووقفوا مع الباطل وأنكروا الحق، وبعد هذا الوعظ الذي أصم الشيطان آذان القوم عن سماعه، ذكّرهم الإمام بأنهم مسلمون، أطاعوا الله ورسوله وآمنوا بما جاء به من مبادئ واهتدوا إلى سبيل الخير والرشاد وأخرجهم من الظلمات إلى النور وأصبحوا بفضله سادة الدنيا، وها هم اليوم يخالفونه ولم يلتزموا بما أوصاهم به فقد ترك فيهم بعد رحيله الثقلين «**كتاب الله وأهل بيته**» وأوصاهم بالتمسك بهما في إشارة إلى قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

«**إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا**»[1].

(١) سنن الترمذي ١ / ٢٢٣.

وما يحصل الآن في هذا المقام خلاف ما أمر به الله وأوصى به الرسول، فأنتم تزحفون إلى عترته وأهل بيته تريدون قتلهم لكي يرضى عنكم الولاة الظالمون، وتنصرون الباطل على الحق، وفي هذا إغضاب لله ورسوله، وحين لم يجد الإمام أُذناً صاغية من هؤلاء القوم، وصفهم بأنهم قوم استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله ومبادئ دينه الحنيف، وجعل في آذانهم وقرا فأصمها عن سماع نداء الحق وسماع ما يقوله الإمام، وعندها دعا الإمام عليهم وعلى ما يريدون بقوله: «**فتباً لكم ولما تريدون**» وقد استعمل الإمام صيغة المصدر في الدعاء بحالة النصب ليكون أكثر توكيداً ويدل على تجدد الأمر واستمراره. ثم يسترجع الإمام إلى الله مما يريد هؤلاء القوم الإقدام عليه، فإليه ترجع الأمور، ويصفهم بأنهم قوم ظالمون كفروا بعد إيمانهم بالله ورسوله فبعداً لهم ولأعمالهم التي تكون سبباً في غضب الله ورسوله عليهم، وقد استمد الإمام هذا الوصف من القرآن الكريم.

ومن أجل أن يضع الإمام القوم أمام واقع الأمر، ويبين لهم طبيعة الشر التي سيطرت على نفوسهم وعقولهم فأنستهم كل شيء حتى ذكر ربهم ومبادئ دينهم، لجأ إلى مخاطبة عقولهم وقلوبهم من خلال التذكير بأمور معروفة لديهم، ويدركها العرب جميعاً، فلا أحد من العرب يجهل أن الحسين هو ابن بنت رسول الله وابن وصيه، وانه سيد شباب أهل الجنة ـ يقول:

«أيها الناس انسبوني من انا ثم ارجعوا إلى انفسكم وعاتبوها وانظروا ـ هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه ـ أوليس حمزة سيد الشهداء عم ابي، أوليس جعفر الطيار عمي، أولم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي. هذان سيدا شباب أهل الجنة».

لقد تغيرت بنية الخطاب في هذه القطعة، فقد صاغ الإمام تراكيبه بأسلوب مؤثر وعبر عما يريد بأسلوب انشائي بدلاً من الأسلوب الخبري الذي بدأ به خطابه، وذلك

أن هذا المقام يتطلب هذا النوع من الأساليب، لأنها أكثر تأثيراً وأشد وقعاً في نفوس السامعين فهي تشد السامع إليها وتستلزم منه إجابات محددة لذا يطالعنا الخطاب في هذه القطعة بحشد من الأساليب الإنشائية كل منها يتطلب جواباً من السامعين (نداء، أمر مكرر، استفهام، استفهام انكاري..). وقد شكلت هذه الأساليب بنية هذا المقطع من الخطاب، وقد حشدها الإمام ليشد إليها أذهان السامعين ويدفعهم إلى التفكير في وضع إجابات لهذه المطالب، وإن كانت معروفة لديهم.

بدأ الإمام خطابه بنداء مؤثر «**أيها الناس**» ومن الطبيعي أن مثل هذا النداء في مقام يستعد فيه الرجال للقتال وتصطخب فيه أصوات السلاح وتقرع طبول الحرب يوحي بأن المنادي يريد أن يقول شيئاً يستلزم الانتباه والإصغاء، ويجعل السامع مشدوداً ومتيقظاً لسماع ما يقال، وحين أنصت القوم لهذا النداء أتبعه الإمام بطائفة من صيغ الطلب يتبع بعضها بعضاً وفي كل منها طلب يستلزم جواباً «**انسبوا، ارجعوا، عاتبوا، انظروا**»، ويمكن القول: إن هذا يأتي من باب تذكير القوم بأمور يستلزم المقام التذكير بها، فقد سيطرت على أفكارهم نزعة الشر والانتقام فأنستهم كل شيء، وإلاّ فهم يعرفون الحسين ويعرفون جده وأباه وأمه، وكل شيء عنه، وبعد هذا طلب منهم مراجعة أنفسهم وقد استعمل مع هذا الفعل أداة العطف «**ثم**» التي تفيد في السياق دلالة التراخي ووجود مهلة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا ما يقتضيه السياق وطبيعة الفعل «**راجع**» ذلك أن مراجعة النفس لايمكن أن تكون بصورة متسرعة. وإنّما تحتاج إلى وقت لإعادة النظر فيما يريد الإنسان الإقدام عليه، ولو استعمل «**الواو أو الفاء**» وهما يصلحان في هذا الموضع لما وصل إلى الدلالة التي تؤديها «**ثم**». ويوحي تكرار صيغ الأمر وعطف بعضها على بعض بدلالة الإلحاح والتأمل فيما يريد الإنسان الإقدام عليه لأن التسرع في مثل هذه المواقف تكون له نتائج غير سليمة.

وبعد سياق الأمر الذي حدد فيه الإمام ما يريده من هؤلاء القوم انتقل إلى سياق آخر من سياقات الطلب وهو الاستفهام، وقد بنيت تراكيب الاستفهام على الاستفهام الانكاري وهو ما يتطلبه السياق ويحدده المقام، ذلك أن الإمام أراد من خلال تكرار هذا الأسلوب إقرار القوم بحقيقة ما يريد قوله، لذا وجدنا الإمام يسوق في قطعة صغيرة عدداً من تراكيب الاستفهام الانكاري، ليثير من خلالها عواطف القوم ويدفع كثيراً منهم للتفكير في وضع إجابات لهذه التساؤلات التي تتابعت في هذا المقطع من الخطاب ويبدو من النص أن الإمام كان دقيقاً في استعمال هذه التراكيب، لقد وجه الإمام سؤاله إلى القوم:

«**هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي**»؟.

وبعد طلبه منهم أن ينسبوه فقد يكون نسبه إلى رسول الله وصلته به رادعاً لهؤلاء القوم عما يريدون الإقدام عليه من أمر. ثم اتبع ذلك بسلسلة من الاستفهام الإنكاري كان الغرض منه إقرار القوم واعترافهم أنّ ما يقوله هو الحق، لأن جواب هذا النوع من الاستفهام هو إقرار بإثبات مابعده، ذلك أن بنية الاستفهام الإنكاري تدل على إثبات ما بعدها على وجه الحقيقة لذا تكون إجابته بـ«**بلى**». ففي قوله تعالى:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ التين/٨.

وقول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

يكون بإثبات أن الله هو أحكم الحاكمين، والمخاطبين خير من ركب المطايا في نظر الشاعر، يقول الإمام:

«**أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أوليس جعفر الطيار عمي، أولم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي ـ هذان سيدا شباب أهل الجنة**».

الناظر في هذه التساؤلات يجد أنّ مابعدها هو حق ثابت يعرفه المسلمون جميعاً، فالحمزة هو عم الإمام علي بن أبي طالب حقاً وصدقاً، وجعفر الطيار هو عم الإمام الحسين، وقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحسن والحسين ثابت يعرفه جميع المسلمين، وسمعه الصحابة من الرسول. كل هذه الأمور وغيرها ثابتة يعرفها المسلمون من العرب وغيرهم، ولم يرد الإمام من ذكرها إخبار القوم بشيء ولم يعرفوه إنما أراد من ذكرها إقرار القوم بها حقاً وصدقاً، وعندها يكون مايريدون الإقدام عليه من قتله وانتهاك حرمته خطأ كبيراً يحاسبهم الله عليه حساباً عسيراً ويخسرون الدنيا والآخرة.

ولذا نجد الإمام يدعو القوم إلى التصديق بما يقوله، لأنه هو الحق وهو الواقع الذي لاخلاف فيه، ولكن نزعة الشر أعمت بصائر هؤلاء القوم وجعلتهم لايفقهون شيئاً مما يقال لهم، فقلوبهم غلف عن فهم ما يقال ومن أجل توكيد ما ذهب إليه الإمام وتصديقه يحيلهم إلى سؤال من معهم من الصحابة مستعملاً في ذلك أسلوب الشرط بقوله:

«فإن صدقتموني بما أقول... وإن كذبتموني فإن فيكم من لو سألتموه عن ذلك أخبركم به...».

ثم يحيلهم إلى طائفة من الصحابة لكي يسمعوا منهم ويؤكدوا لهم الحقيقة في هذا الأمر ـ سلوا جابر بن عبدالله الأنصاري وأبا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأنس بن مالك ـ وهذه الطائفة من الأسماء التي ذكرها الإمام في خطابه هي أسماء عدد من الصحابة والتابعين ممن عاصروا رسول الله وسمعوا منه ما قاله في حق الحسن والحسين بأنهما سيدا شباب أهل الجنة ـ وأنهما إمامان إن قاما وإن قعدا.

لكن هذا الخطاب وما أورده فيه الإمام من احتجاج صادف من القوم قلوباً كالحجارة أو أشد قسوة، وأسماعاً فيها وقر عن سماع نداء الحق، قلوباً سيطر عليها

الشيطان فأعماها عن رؤية الخير، قلوباً تمكنت منها نزعة الشر فنزعت منها كل رحمة، وعقولاً سيطر عليها حب الدنيا وزينتها فشغلها عن التفكير بالآخرة، لقد أصم الشيطان آذانهم وأعمى أبصارهم، فلم يفرقوا بين نور الحق وظلام الباطل، ولم يميزوا بين بياض الصبح وسواد الليل، فلم ينتفعوا منها بشيء وصدق عليهم قول الشاعر.

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره   إذا استوت عنده الأنوار والظلمُ

ولأنهم هكذا يجيبه جلف جاف يقال له شمر بن ذي الجوشن أنا أعبد الله على حرف إن كنت أدري ما تقول هذا جواب مجرم كافر سفاك نزع الله الرحمة والإنسانية من قلبه، وجعله لايفقه شيئاً مما حوله فهو بهيمة كما وصفه أحد أصحاب الإمام الحسين.

وحين وجد الإمام الحسين هؤلاء القوم لايسمعون خطاباً ولايفقهون قولاً، وهم ينكرون كل ماسمعوه وما فعلوه وجه نداءً خاصاً إلى الملأ منهم وخصهم بأسمائهم قال:

«يا شبث بن ربعي ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا زيد بن الحارث... ألم تكتبوا اليّ ان اقدم قد اينعت الثمار واخضر الجناب، وانما تقدم على جنود لك مجندة...».

لقد انتقل الإمام إلى الحوار مع هؤلاء القوم بعد أن ألقى عليهم الحجة ووعظهم بما هو حق لهم عليه، وبين لهم طريق الحق والهدى، فوجد أنهم لا يسمعون خطاباً، ولا يملكون جواباً لما يقول، لقد استحوذ عليهم الشيطان فانساهم كل شيء، وأنكروا ما سمعوا وما فعلوا، ولم يعرفوا سوى لغة الحرب، وقد وصف أحد الادباء هذا الموقف بقوله:

لم أنسه إذ قام فيهم خاطباً   فإذا هم لا يملكون خطابا
فغدوا حيارى لا يرون لو عظه   الا الاسنة والرماح جوابا
صلت على جسم الحسين سيوفهم   فغدا لساجدة الظبا محرابا

لقد خص الإمام جماعة ممن كاتبوه وطلبوا منه القدوم إلى العراق وعاهدوه أن يبذلوا أرواحهم وأموالهم دفاعاً عنه، وهم الآن في صف أعدائه ويحملون أسلحتهم عليه، ويعدون العدة لقتاله، وهو موقف يثير العجب، وأغرب منه جوابهم للإمام حين وجه إليهم النداء بأسمائهم، لقد أجابوه، اننا لم نفعل، لقد كذبوا على الله وعلى الناس وتنكروا لكل ما فعلوه، وأمام هذا الجواب الذي يثير الاستغراب اضطر الإمام إلى استعمال أسلوب فيه من القوة والتوكيد ما يدل على كذب هؤلاء الرجال، فقد استعمل الإمام في سياق رده على جوابهم القسم والتوكيد والتعجب من فعل هؤلاء وجوابهم قال: «**سبحان الله والله لقد فعلتم**» بدأ الإمام رده على جوابهم بالتعجب مما قالوه ثم اتبعه بحرف الجواب «**بلى**» وهو حرف يجاب به في سياق النفي، أجاب به قولهم «**لم نفعل**»، ثم أتبع ذلك بقسم عظيم بلفظ الجلالة ومؤكدين هما «اللام وقد» والله لقد فعلتم، نعم فعلوا كل ذلك صدقت يا سيدي يا أبا عبد الله، صدقت وهم الكاذبون فقد كاتبوك ودعوك إلى القدوم وقالوا: إنما تقدم على جند لك مجندة، ثم تنكروا لكل ما فعلوه، وأصبحوا في صف أعدائك.

وبعد رد الإمام على جوابهم «**لم نفعل**» بالصورة التي تقدمت استمر الإمام في حواره مع القوم مستعملاً أسلوب الشرط الذي تكرر كثيراً في خطاباته مع هؤلاء القوم:

«أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمن من الأرض».

إن ما ورد في هذه الفقرة يعد حجة يلقيها الإمام على هؤلاء القوم وهو يعرف ان الأمر ليس في أيديهم ويعرف أن مصرعه ومثواه في هذه الأرض، وقد عبر عن ذلك حين وطئت قدماه أرض كربلاء، وهو لا يريد الانصراف من هذا المكان، ولو افترضنا

أنهم سمحوا بذلك لما فعل الإمام منه شيئاً لأنه ماضٍ لأداء رسالة لا يمكنه التراجع عنها، ويقول له قيس بن الأشعث:

«أو لا تنزل على حكم بني عمك فإنهم لن يروك إلا ما تحب...».

وحين سمع الإمام هذا الكلام منه، غضب منه وتغيرت لهجته وأسلوب خطابه معهم، لأن هذا الرجل هو أخو محمد بن الأشعث الذي يطلبه بنو هاشم بدم مسلم بن عقيل، رسول الإمام الحسين إلى أهل الكوفة فيرد عليه الإمام بأسلوب غاضب قائلاً:

«أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا اقر اقرار العبيد عباد الله ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ **الدخان / ٢٠.** ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ **المؤمن / ٢٧.**

لقد كانت التراكيب التي ألّفت بنية هذا الخطاب فيها دلالة على الغضب والقوة في الوقت نفسه وهذا ما يتطلبه المقام، لأن الإمام الحسين لم يخرج إلى العراق لينزل على حكم الامويين ويبايع يزيد بالخلافة لأنه رفض هذا الأمر وهو في المدينة، ومن هنا فقد خرج ثائراً ورافضاً لبيعة يزيد بن معاوية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتقبل مثل هذا العرض من قوم قتلوا أخاه وابن عمه واجتمعوا لقتاله، لذا نراه يطلق تلك العبارة التي مثلت قراره الحاسم في هذا الأمر، وهو القتال الذي لابد منه من أجل إحياء الدين والدفاع عنه ضد ظلام الكفر والطغيان، تلك العبارة التي أصبحت فيما بعد شعاراً خالداً لكل الثائرين من أجل الحق والكرامة، ولكل مظلوم في وجه من ظلمه.

وقد بنيت هذه العبارة بألفاظ وتراكيب يتفجر الغضب والرفض من كل كلمة منها، بدأت بالقسم بلفظ الجلالة، وهو قسم عظيم يستعمل في الأمور الكبيرة والعظيمة، وتكررت فيها أداة النفي ثلاث مرات على قصرها لتوحي بدلالة الرفض

الشديد لما طلب منه، ولا شك أن مثل هذا التكرار فيه دلالة على التوكيد وقوة نفي المراد، نعم لقد خرج الإمام ثائراً من أجل نصرة الحق والدفاع عن الدين ووضع كل شيء في مكانه الصحيح، وسوف يستمر في هذا المنهج مهما كان صعباً ومهما كان الثمن غالياً إمّا النصر وإمّا الشهادة، لقد خرج الإمام الحسين من أجل الكرامة خرج ليقدم نفسه ومن معه قرابين من أجل دين محمد، لأن في موته انتصار الحق على الباطل وانتصار الدم على السيف، وسوف يكون مخلداً في الدنيا والآخرة، وهذا ما تدل عليه العبارات التي استعملها الإمام في خطابه مع هؤلاء القوم، وعبر فيها عن رفضه لبيعة الظالمين، رفضها في كربلاء كما رفضها من قبل في المدينة.

٣ـ خطاب الإمام الحسين في يوم عاشوراء

تذكر الروايات التي تحدثت عن واقعة كربلاء في مصادرها المختلفة أن الإمام الحسين بعدما رأى عزم القوم على قتاله، وإصرارهم على تنفيذ أوامر الطغاة، وعدم استماعهم إلى نداء الحق والعقل، ركب جواده وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه ووقف بإزاء القوم وقال:

«يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدي رسول الله ثم سألهم عما أقدمهم على قتله، قالوا: طاعة للأمير عبيد الله بن زياد».

فقال: (١)

«تباً لكم ايتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلا لكم الويلات،

(١) ينظر مقتل الإمام الحسين / المقدم ١ / ٢٨٩، الخوارزمي / ١٢٠.

تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، ثم نفضتموها فسحقاً لكم يا عبيد الامة وشذاذ الاحزاب ونبذة الكتاب ومحرفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تخاذلون؟ اجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه اصولكم وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم اخبث ثمر، وشجى للناظر، وآكلة للغاصب، الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، الا واني زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر».

ثم أنشد أبيات فروة بن مسيك.

فان نهزم فهزامون قدماً	وان نهزم فغير مهزمينا
وما ان طبنا جبن ولكن	منايانا ودولة آخرينا
اذا ما الموت رفع عن أناس	كلا كله أناخ بآخرينا
فلو خلد الملوك اذن خلدنا	ولو بقي الملوك اذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا	سيلقى الشامتون كما لقينا

اما والله لا تلبثون بعدها الا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدي.

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يونس/٧١، ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ هود/٥٥.

«اني توكلت على الله ربي وربكم وما من دابة الا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم، اللهم احبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم

سنيناً كسني يوسف، فإنهم غرونا وكذبونا وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا واليك المصير»[(١)].

الناظر في بنية هذا الخطاب وتراكيبه وأساليب التعبير فيه يجده يختلف بصور تامة عما تقدم من خطابات الإمام من خلال مسيرته، ذلك أن هذا الخطاب جاء في مقام استنفذ قبله الإمام الحسين كل الوسائل الممكنة لإقناع القوم بما هو مطلوب منهم، ومن هنا جاء هذا الخطاب ليمثل إعلان القتال الذي لا مناص منه وبيان استعداده لمواجهة القوم الظالمين، ومن هنا أراد الإمام الحسين لهذا الخطاب، وهو الأخير قبل بدء القتال، أن يكون مختلفاً في أسلوبه وتراكيبه اللغوية أولاً، وأراد الإمام الحسين لنفسه أن يظهر أمام القوم بمظهر يختلف عما ظهر به في خطاباته السابقة، وقصد الإمام من هذا أن تكون هيأته حجة أخرى على هؤلاء القوم الذي يعقدون العزم على قتل ابن بنت نبيهم وابن وصيه، تقول الرواية:

«إن الإمام الحسين ركب جواده وأخذ مصحفاً ونشره فوق رأسه ثم حمل سيف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولبس درعه واعتم بعمامته السحاب»[(٢)].

لقد أظهر الإمام من خلال هذه الهيأة انه الوارث الشرعي لجده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه يحمل من ميراث جده أهمّ ما يعتز به العربي في حياته سلاحه ودرعه وعمامته، لقد جسد الإمام من خلال هذه الهيأة صورة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ليتعظ بها من لم يتعظ بالكلام، انها صورة تعود بذاكرة القوم إلى أيام الرسالة والدعوة المحمدية وتذكرهم بشخص الرسول وكأنه ماثل امامهم الآن، وهم يرون في شخص الحسين وهو يتقلد سيف الرسول ويعتم بعمامته شخص الرسول

---

(١) الفتوح ٥ / ٢١٣، الاحتجاج ٢ / ١٢، مناقب أبي طالب ٤ / ١١٩.

(٢) تأملات في زيارة وارث / ١٦٩.

(صلى الله عليه وآله وسلم)، وإذا تجاوزنا الهيأة التي برز فيها الإمام الحسين لمخاطبة القوم إلى بنية الخطاب الذي تحدث به أمامهم بهذه الهيأة نجد فيه اختلافاً كبيراً في أسلوبه وبناء تراكيبه والهدف منه، واذا كان الطابع المهيمن في خطاباته السابقة هو الوعظ والإرشاد فإن طابع هذا الخطاب هو اللوم والتقريع والدعاء على القوم، لقد جاءت تراكيب هذا الخطاب محملة بشحنات دلالية مكثفة لترسم صورة الغضب الحسيني على القوم الذين استحوذ عليهم الشيطان، وتنهي لغة الحوار والخطاب التي بدأها الإمام مع هؤلاء القوم من أول لقاء مع الحر وأصحابه، وتحل محلها لغة السلاح والقتال، ذلك ان كل ما وعظ به الإمام وما ذكرهم به لم يجد نفعاً معهم ولم يغير شيئاً من أفكارهم.

ويمكن أن نلمح في بنية هذا الخطاب ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: توبيخ القوم وتأنيبهم بقسوة على عدم استجابتهم لنداء العقل وما ارتكبوه من ظلم بحق أهل البيت، ويبدو واضحاً أن المقام اقتضى هذا النوع من الخطاب القاسي، لأنه يخاطب قوماً عقدوا العزم على قتله ومن معه، ولم يتّعظوا بكل ما قاله لهم ولم يحفظوا قرابته من رسول الله.

الاتجاه الثاني: يمثل القرار النهائي الذي اتخذه الإمام نظراً لإصرار القوم على القتال وعدم الاستجابة لكل ما بيّنه لهم الإمام، فلم يبق أمام الحسين من خيار سوى المركب الصعب وهو القتال حتى النصر أو الشهادة.

الاتجاه الثالث: بيان النهاية الحتمية لهؤلاء القوم وما ينتظرهم من مصير مظلم بعد قتلهم الإمام الحسين، ولا يكون ذلك بعيداً انما هو قريب جداً، وقد وصفه الإمام بقوله «**ريثما يركب الفرس**» كناية عن سرعة نهايتهم.

بدأ الإمام خطابه بالدعاء وقد هيمن الأسلوب الإنشائي على بنية المقطع الأول من الخطاب (دعاء، نداء، دعاء، استفهام، تحضيض...)، وهذا ما يلائم المقام الذي

ألقى فيه الإمام خطابه فقد قصد منه تأنيب القوم وتقريعهم بعد استنفاد وسائل الإقناع معهم لردعهم عما يريدون الإقدام عليه من عمل فيه إغضاب لله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:

«**تباً لكم أيها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم**».

حين ننظر في الكلمات والتراكيب التي تألف منها هذا المقطع نجد انها تندفع بقوة من نفس يحز الالم في جوانبها لتقرع أسماع هؤلاء القوم وتقض مضاجعهم، وهي تحمل في طياتها شحنات من العتاب المر الذي خرج إلى دلالة اللوم الشديد والتقريع.

بدأ الإمام خطابه بالدعاء على هؤلاء القوم مستعملاً صيغتين من صيغ المصادر بحالة النصب «**تباً وترحاً**» وهذا يعني انه بنى هذا الأسلوب من الدعاء على التركيب الفعلي الذي يدل على الحدوث والتجدد، وكأنه يريد لهذا الدعاء أن يظل مستمراً ومتجدداً على هؤلاء القوم في حياتهم وبعد مماتهم، وكأن الله قد استجاب هذا الدعاء من الإمام الحسين، فظلت اللعنة تلاحقهم إلى يومنا هذا، وبعد الدعاء وجه الإمام استفهاماً كبيراً للقوم عن مقابلة الإحسان بالإساءة، وقد جعل الاستفهام مسلطاً على الظرف لتأكيد الزمن الذي استجاب فيه الإمام لدعوة القوم، لقد كان هذا الاستفهام يلاحق القوم ويقرع أسماعهم باحثاً عن جواب لا يملكونه، ويبدو من خلال النص أن الإمام ناسب بين نهايات التراكيب بألفاظ متماثلة في الإيقاع الصوتي «**والهين، موجفين، أيمانكم، عدوكم**»، لتضفي على الخطاب جواً من الموسيقى المتناغمة، وقد منح صوت النون الذي تكرر ست مرات في هذا المقطع نوعاً من التنغيم الهادئ المؤثر، وكأنه يوحي بالهدوء الذي يسبق العاصفة، وحين نركز في البنية الصوتية لألفاظ هذا المقطع نجد ان الإمام قصد إدخالها في مواضعها قصداً لما في دلالة أصواتها ومن إيحاءات

بالتعبير عن ظلال من المعاني الهامشية تؤلف الصورة النهائية للمقطع، فالألفاظ «**تباً وترحاً، استصرختمونا، حششتم**» ازدحمت فيها طائفة من الأصوات الشديدة والأصوات التي فيها تكرار لتوحي بجو من الغضب والألم يقول أحد الباحثين:

«كشفت الأصوات الشديدة (الباء، والتاء) وصوت المد الالف وسعته وارتداد صوت الراء في الألفاظ (تباً وترحاً) عن الغضب الشديد والألم»[(١)].

أما لفظة «**استصرختمونا**» بأصواتها الأحد عشر ومقاطعها الستة فقد استعملها الإمام بدلاً من دعوتمونا، لأنها تؤدي دلالة لا يمكن أن تؤديها «**دعوتمونا**»، ذلك أن الاستصراخ يكون في الحالات القاسية والصعبة، وقد أضفى تقارب المخارج في أصوات هذه المفردة والصفير الذي يبدو واضحاً من خلال صوتي الصاد والسين وطول هذه المفردة وتعدد أصواتها كل ذلك يوحي بدلالة القلق والاضطراب وهي مذكورة صفة تلازم من يستصرخ غيره وتتطلب من المتلقي سرعة الاستجابة، وهذا ما يمثل طبيعة أهل العراق حين دعوا الإمام وطلبوا منه القدوم إلى بلدهم، فقد كان حالهم يسودها الاضطراب والقلق والخوف، وقد اتضح ذلك من كثرة الرسائل والوفود التي أرسلوها إلى الإمام وفيها إلحاح شديد على طلب القدوم منه ــ ولهذا عبر الإمام عن سرعة استجابته لهذا الاستصراخ بقوله «**فأصرخناكم مو جفين**» وهذا التركيب فيه ايحاء بالدلالة على سرعة الاستجابة وقوتها، لأن الايجاف في اللغة يدل على قوة الاستعداد وسرعة الاستجابة، لقد كان استعمال الإمام دقيقاً في التعبير عن وضع أهل العراق واستجابته لدعوتهم، فقد كانوا في وضع يسوده الاضطراب والقلق والحيرة وقد وجدوا في شخص الإمام الحسين منقذاً لهم من هذا الوضع فانهالت عليه كتبهم ورسلهم بإلحاح، وحين استجاب الإمام لما طلبوه وقدم إلى بلدهم وجدهم بوجه آخر وهو ما

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية/٥٩ وينظر سر الفصاحة/٢٣ والأصوات اللغوية/٢٤.

عبر عنه في المقطع الثاني من خطابه وأوضح لهم فيه الخطأ الكبير الذي انزلقوا إليه والمأزق الكبير الذي أوقعوا فيه أنفسهم فهم بدلاً من الوقوف مع الإمام الذي أسرع إلى إجابة دعوتهم واستصراخهم له وقفوا في صف أعدائه وحملوا أسلحتهم لقتاله وسلوا سيوفهم لقتله وهو موقف يثير الاستغراب والتساؤل عما غير أفكارهم وجعلهم يختارون الوقوف مع الظالم ضد المظلوم ومع الباطل ضد الحق ويختارون الدنيا الفانية على الآخرة الخالدة. يقول:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لاعدائكم على اوليائكم بغير عدل افشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم».

لقد كان الإمام الحسين واضحاً في هذه الفقرة من خطابه فقد كشف عن هذا التغير العجيب في مواقفهم والانقلاب السريع في أفكارهم ونواياهم مستعملاً صيغة الفعل الماضي للدلالة على انتهاء الحدث ووقوعه «**سللتم ـ حششتم ـ أصبحتم**». قال الإمام هذا لأن من دعاه إلى القدوم ونذر نفسه لنصره يقف الآن في صف أعدائه، والسيف الذي ادخره الإمام في أيمانهم لقتال عدوه وعدوهم يرفعونه اليوم في وجهه ويسلونه لقتله وقتل أصحابه، والنار التي اقتدحها الإمام فيهم لتحرق الأعداء توجهت ألسِنة لهبها إلى نحر الحسين وأصحابه.

لقد حملت هذه القطعة من الخطاب عتاباً مراً لهؤلاء القوم على ما فعلوه بأنفسهم وما يريدون فعله، وقد حملت الألفاظ التي تألفت منها تراكيب هذه القطعة دلالات تعبر عن شدة الألم الذي سببه هؤلاء القوم للإمام الحسين.

فألفاظ مثل «**اقتدحناها وحششتم وإلباً**» تحمل في طياتها وتأليف أصواتها دلالة على التكثير وقوة الاتقاد والكثافة والتغير والانقلاب[1].

(١) ينظر التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية /٦٠ وكتاب العين / حش ١٥٣/٣.

لقد كان الإمام صريحاً في حديثه مع القوم عن واقعهم وزيف حياقم، حدثهم عن استجابته السريعة لاستصراخهم ثم انكفأوا عليه وأصبحوا مع أعدائه، على الرغم من أن هؤلاء الاعداء لم يسيروا معهم بعدل ولم يكن لهم أمل فيهم سوى العيش الخسيس[1] وحياة الذل والهوان.

لقد وجه الإمام اللوم لهؤلاء القوم لأنهم ارتضوا هذا الواقع لأنفسهم وأصبحوا يداً لأعدائهم على اوليائهم، ولم يسلكوا طريق الحق في التعامل مع الإمام الحسين حين قدم إلى بلدهم بدعوة منهم فخذلوه ولم يكتفوا بالخذلان انما وقفوا في صف أعدائه وحملوا سيوفهم لقتله يقول:

«فهلا لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش ثم نفضتموها، فسحقاً لكم ياعبيد الامة ونبدة الكتاب ومحرفي الكلم وعصابة الاثم ونفثة الشيطان ومطفئي السنن».

لقد بنى الإمام هذه القطعة من خطابه بتراكيب تنبعث منها رياح التأنيب والعقاب المر لهؤلاء القوم على ما ارتكبوه من أخطاء بحق أوليائهم من أهل البيت، وقد بدأت القطعة بالتحضيض وهو أسلوب يدل على اللوم الشديد والتوبيخ، ثم أتبعه بالدعاء عليهم لانهم تخلوا عن أهل البيت وتركوهم في وقت لم تتضح فيه الامور ولم تستقر الآراء باتجاه ثابت فما أسرعهم في الانقلاب والتخلي عن العهود والمواثيق وعن البيعة التي أسرعوا إليها وتهافتوا عليها، وقد استعمل الإمام تشبيهاً جميلاً لوصف هذه الحالة، وهو وصف مستوحى مما ورد في نهج البلاغة عن هذا الأمر[2] يقول:

«أسرعتم إليها كطيرة الدبا وتداعيتم عليها كتهافت الفراش».

---

(١) ثورة الإمام الحسين /١٤٥.

(٢) ينظر نهج البلاغة ٢/٥٥.

لقد عبر الإمام بهذا الوصف عن صورة تحمل طائفة من المعاني الحسية «**السرعة الكثرة الضعف**».

يقول أحد الباحثين:

«وقد تجلى من خلالها عمق المعنى القائم على أن العهود والمواثيق في الكتب قد جاءت لضعف هؤلاء القوم وعدم قدرتهم على مقاومة الظالم، فأسرعوا وتدافعوا للاستنجاد بإمامهم ولكن هذا الاسراع والتزاحم لم يأت عن بصيرة، وانما جاء رغبة وطمعاً في الدنيا فحالهم كحال طيرة الدبا التي تتسابق نحو النور، وتزدحم فتمتاز بسرعتها الناجمة عن خفة وزنها وضعفها وهي بذلك تشابه هؤلاء القوم في الكثرة والسرعة والضعف»[1].

لقد كانت هذه الصورة دقيقة جداً في وصف هؤلاء القوم، وكان اختيار الإمام لهذا النوع من الكائنات «**الدبا والفراش**» موفقاً في تصوير حالة القوم ذلك «أن هذا الكائن لما كان بهذا الحجم من الصغر، فهذا دليل على ضعفه وهوانه، فكذلك حال أهل الكوفة فهم بهذه الدرجة من الضعف والهوان والمسكنة حينما أرسلوا كتبهم ورسلهم التي تطلب المنقذ والمخلص لهم من ضنك التعسف والجور»[2].

ويبدو واضحاً من خلال ما تقدم أن هذه الصورة رسمت لوحة الموقف رسماً يقترب من الماديات. وقد سبق للإمام علي (عليه السلام) أن رسم مثل هذه الصورة لبيعته في نهج البلاغة.

وبعد هذه الصورة التي تكاد تنطق بحال هؤلاء القوم انتقل الإمام إلى الدعاء عليهم بقوله «**سحقاً لكم**» ويبدو واضحاً أن استعمال الدعاء بهذا الأسلوب فيه دلالة

(١) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسنية /٧١، وينظر حياة الحيوان ١٣٦/٢.

(٢) نثر الإمام الحسين / دراسة بلاغية /٢٦.

على إرادة الاستمرار والتجدد، لأنه مبني على التركيب الفعلي، ثم يضع الإمام طائفة من التراكيب التي تصف هؤلاء القوم وتجسد الصورة الحقيقية التي تتمثل فيهم، والناظر في هذه التراكيب يجد في كل تركيب منها صورة جديدة تختلف عنها في التركيب الآخر وحين تأتلف هذه الصور مع بعضها ترسم لنا لوحة متكاملة الأبعاد وتمثل الوجه الأسود الكالح لهم فهم «**عبيد الامة، شذاذ الاحزاب، ونبذة الكتاب ومحرفي الكلم وعصابة الاثم ونفثة الشيطان ومطفئي السنن، وقتلة أولاد الانبياء...**». كل هذه الصفات السيئة تمثل الصورة الحقيقية التي عليها هؤلاء القوم. ولا يمكن لشخص فيه هذه الصفات أن يكون مستقيماً في حياته وتصرفاته، ولاشك ان كل واحدة من هذه الصفات كفيلة ان تهد مجتمعاً بأكمله فكيف بها حين تجتمع كلها.

وبعد هذا الوصف المتتابع لهؤلاء القوم خاطبهم بقوله:

«**ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون، أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجى للناظر، واكلة للغاصب...**».

بدأ الإمام بلفظة «**ويحكم**» وهي توحي بشدة اللوم والتأنيب الممزوج بالتعجب وقد عزز هذا وجود همزة الاستفهام في هذا السياق وهي تحمل دلالة واضحة على العجب من موقف هؤلاء القوم وقد جعل الإمام الاستفهام مسلطاً على الاسم دون الفعل، لأنه لايريد التعجب من فعلهم انما أراد التعجب من نصرهم هؤلاء القوم الظالمين، ولهذا قدم هؤلاء على الفعل تعضدون، لأن الحدث قد وقع وأصبح حقيقة فهم تخاذلوا عن الإمام ووقفوا مع أعدائه وشهروا سيوفهم ضده، وهذا هو الواقع الذي هم عليه الآن، فلا يستغرب الإمام من هذا الحدث، لأن الغدر صفة ملازمة لهم وقد سبق لهم ان غدروا بأبيه وأخيه وابن عمه، فليس بمستغرب منهم أن يغدروا به، وقد بنى الإمام تراكيب كلامه على البنية الاسمية التي تدل على ثبات هذا الوصف

ودوامه، وقد قدم الإمام لفظة الغدر بصيغة التنكير لتكون شاملة ويكون الاهتمام موجهاً إليها، وقد وصف غدرهم بأنه قديم فيهم يقول: «**وشجت عليه أصولكم وتآزرت عليه فروعكم**». ويمكن أن نلمح تأثير البناء الصوتي للفعل «**وشجت**» بأصواته التي تفاوتت بين الشدة والرخاوة[(١)]. في الدلالة على شدة الترابط والتلاحم، يقول أحد الباحثين:

«فيها إيحاء يفضي إلى شدة التلاحم والتشابك في الفروع والاصول لهؤلاء القوم قد لايصوره لفظ آخر، فمنح الفعل (وشج) دلالة إيحائية سرحت بذهن المتلقي إلى صورة تلك الجذور المتشابكة وتقاسم الحياة البشرية في جزأين (الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة»[(٢)].

وفي ضوء هذه الصفة التي وشجت عليها الأصول، وتآزرت عليها الفروع فقد أصبحوا يمثلون أخبث الثمر الذي يشجي عين الناظر إليه ويؤذيها، وصاروا من ذلهم وهوانهم أكلة للغاصبين فلا يستطيعون رداً ولا يمتلكون القدرة على مواجهة الظلم.

وبعد هذا الوصف الدقيق الذي قدمه الإمام ورسم من خلاله صورة لحقيقة هؤلاء القوم وواقعهم انتقل في خطابه إلى أمر في غاية الأهمية حدد من خلاله القرار النهائي الذي أراده هو وأصحابه يقول:

«ألا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من ان نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، الا واني زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد، وخذلان الناصر».

---

(١) ينظر الاصوات اللغوية /٢٥.

(٢) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية /٥٩.

ثم تمثل بأبيات فروة بن مسيك:

فـــإن نهـــزم فهزامـــون قـــدماً وإن نهــــزم فغـــــير مهزمينـــــا

... وقد تقدم ذكرها.)[1].

بدأ الإمام هذه الفقرة من خطابه بأداة التنبيه (ألا) ليلفت نظر القوم إلى المسألة التي يريد الإشارة إليها وبيانها وتتمثل بتحديد نسب هذا الأمير الذي يسيرون بأمره وينفذون إرادته، وقد وصفه الإمام بصفة هي الحقيقة التي يعرفها أهل العراق، فعبيد الله بن زياد أبوه من ادعياء العرب وقد ادعاه أبو سفيان وألحقه بنسبه وكان قبلها يسمى زياد بن أبيه فهو دعي في النسب ولذا جاء وصف الإمام بأنه دعي ابن دعي، لقد أراد الإمام من خلال هذا أن يذكر القوم بحقيقة قد تكون غائبة عن الأذهان هي أن هذا الرجل الذي يأتمرون بأمره وينفذون رغبته ويتابعونه ويخذلون ابن بنت نبيهم وولي أمرهم هو من أدعياء العرب المطعون في نسبهم.

وبعد تذكير الإمام هؤلاء القوم بواقع هذا الأمير أخبرهم انه ركز بين اثنتين بين السلة والذلة. ويقصد الإمام بهذا القول الخيارات التي يريدها ابن زياد وهي الخضوع لأسياده من بني أُمية أو القتل. وحينما يطلق الإمام كلمته المشهورة التي أصبحت فيما بعد شعاراً خالداً للمسلمين عامة وشيعة أهل البيت خاصة «**هيهات منا الذلة**»، والناظر في بنية هذا التركيب يلمح فيه دلالة على الرفض القاطع للنزول على حكم يزيد، لأن اسم الفعل هيهات الذي بدأ به التركيب فيه دلالة على معنى البعد الذي لا حدود له، حتى يصل إلى معنى الاستحالة لحدوث ما بعده.

وتقديم شبه الجملة «**منا**» على الذلة فيه دلالة كبيرة على تأصيل الرفض عن الإمام وأصحابه وتأكيده، وفيه تخصيص لهذا المبدأ فيهم. ومن هنا «فإن شيئاً من ذلك

(١) ينظر مقتل الإمام الحسين الخوارزمي ٢/٩، والاجتياح الطبرسي ٢/٢٢.

لم يحصل لأن الذلة الحقيقية إنما تحصل لو حصلت المبايعة للحكم الاموي والخضوع لـه، تلك هي الذلة التي تجنبها الحسين (عليه السلام) بكل جهده وضحى ضدها بنفسه»[(١)].

وفي هذا السياق يبين المرتكزات الأساسية لرفضه الذلة والخضوع لإرادة الظالمين، ومن أهم هذه المرتكزات ان الله ورسوله والمؤمنين لايرتضون منه ذلك، وتأبى ذلك أيضاً حجور طابت وطهرت ونفوس أبيه وأنوف حمية. وهذه هي صفات الحسين وأصحابه التي لا يمكن لها بأي حال من الأحوال تقبّل الذل والهوان مثلما يفعل غيرهم من البشر، ومن هنا كان الاختيار الصعب والقرار الشجاع الذي اتخذه الإمام وأصحابه، انه خيار الحرب والقتال بالرغم من عدم التكافؤ بين الفريقين في العدد والعدة والإيمان بالقضية. وقد عبر الإمام عن هذا القرار بقوله: «**الا واني زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر**». إن هذه التراكيب تمثل إعلان القتال ودخول الحرب بالرغم من كل الصعوبات التي تحيط بالإمام وأصحابه من قلة العدد والعدة وتخلي الناس عن نصرهم، نعم قرر الإمام خوض المعركة مهما كانت النتيجة التي تصل إليها؛ لذا نراه يحدد نتيجة القتال من خلال تمثله بأبيات فروة بن مسيك المرادي التي وظفها الإمام في سياق خطابه توظيفاً رائعاً فجاءت دلالاتها منسجمة مع سياق الخطاب ومعبرة عن رأي الإمام في هذه المعركة. ذلك أن واقع الحال في كل معركة ان تنتهي بانتصار أحد الفريقين وخسران الآخر على الأرض، وهذا الواقع هو الذي جسدته هذه الأبيات بدقة. فالإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه فرسان العرب وشجعانها، وقد شهدت لهم ميادين القتال ومعارك المسلمين، وهم ينطلقون من عقيدة راسخة في نفوسهم وهم أصحاب حق مغتصب، دعوتهم شهادة في سبيل الله ورسوله، وقتالهم جهاد في سبيل العقيدة ونصرة أهل البيت، ومن هذه المبادئ يستمدون القوة

(١) اضواء على ثورة الإمام الحسين /٩٩.

والصمود في قتالهم مع الأعداء الظالمين، فإذا هزموا أعداءهم فهذه هي عادتهم في قتالهم مع الأعداء، وإن كانت الأخرى وهزمهم أعداؤهم وكسبوا المعركة فلم يحدث هذا عن جبن وتقصير أو خوف أو تردد في القتال، انما هو أمر مقدر وهو وقت مناياهم وحياة الآخرين ودولتهم، وان تحقق هذا فهو نصر مادي لا قيمة له في الواقع وسوف تكون نهاية الظالمين الخزي وخسران الدنيا والآخرة. وهذا ما صورته الابيات التي تمثل بها الإمام في خطابه وتقدم ذكرها.

فإن نهزم فهزامون قدماً ‏ ‏ ‏ وإن نهزم فغير مهزمينا
وما إن طبنا جبن ولكن ‏ ‏ ‏ منايانا ودولة آخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ‏ ‏ ‏ سيلقى الشامتون كما لقينا

وقبل أن يقع السيف بين الفريقين فيكون كل منهما أُمة كما عبر عن ذلك أحد أصحاب الحسين، بيّن الإمام الحسين لهؤلاء القوم النهاية التي تنتظرهم بعد قتله، وأخبرهم أن الدنيا التي باعوا كل شيء من أجلها لن تدوم لهم ولن يطول بقاؤهم فيها وسوف يخسرون دنياهم كما خسروا آخرتهم يقول:

«أما والله لاتلبثون بعدها الا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور عهد عهده إليّ أبي عن جدي...».

لقد كان وعداً صادقاً وسريعاً كما وصفه الإمام فلم يلبثوا بعد قتله الا قليلاً وسلط الله عليهم من يقتلهم ويمزقهم شر تمزيق وباءوا بغضب الله وسخطه، وكان مصيرهم النار فخسروا الدنيا والآخرة. بدأ الإمام هذه الكلمة بأداة الاستفتاح «**أما**» ثم أعقبها بالقسم لكي يؤكد لهم صدق مايقول، وهو أنهم لايتمتعون بهذه الدنيا التي قتلوه من أجلها ولن يلبثوا فيها إلا قليلاً من الوقت، وقد استعمل الإمام الكناية للدلالة على سرعة خروجهم من هذه الدنيا بقوله «**الا كريث ما يركب الفرس**» ونلمح في هذا التركيب دلالة على قرب نهايتهم وسرعتها، ذلك أن هذه الدنيا لا يمكن أن تدوم

لأحد ولايثبت فيها سلطان فهي متصرفة بأهلها من حال إلى حال وقد وصف الإمام حركة الدنيا بدوران الرحى على محورها، لقد كان الإمام دقيقاً في وضع هذه الصورة المحسوسة لحركة الدنيا وعدم ثباتها أمام هؤلاء القوم، ولكي يؤكد الإمام ما وعد به القوم من قرب نهايتهم أخبرهم أن هذا عهد عهده إليه أبوه عن جده، وهذا يمثل صدق قوله، لأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ثم ختم الإمام كلامه مع هؤلاء القوم بآيتين من القرآن الكريم لهما دلالة واضحة على استعداد الإمام وأصحابه للقتال وخوض المعركة مع هؤلاء القوم الذين استحوذ عليهم الشيطان. وحين ننظر في الأحداث التاريخية بعد مقتل الإمام الحسين نجدها تحدثنا عن نهاية الذين اشتركوا في قتال الحسين، فلم يمر وقت طويل على قتلهم الحسين حتى دارت بهم الدنيا سريعاً كما وعدهم الإمام وسلط الله عليهم من قتلهم شر قتلة وترامى الأطفال رؤوسهم في أزقة الكوفة، وكأنه سبحانه وتعالى قد استجاب دعاء الإمام عليهم في آخر كلمته.

«اللهم احبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنيناً كسني يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف فإنهم غرونا وكذبونا وانت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير».

لقد دعوه لينصروه ثم تخلوا عنه وخذلوه، ووقف كثير منهم في صف أعدائه، فكان هذا الدعاء الذي أنهى به الإمام خطابه لتنتهي معه لغة الحوار وتبدأ بعدها لغة السيف والقتال بعد أن عجزت تلك اللغة من تحقيق أهدافها، وقد أعلن الإمام ومن معه توكله على الله الذي هو ولي كل شيء وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وبدأت المعركة بين الإمام وأصحابه وبين أعداء الله ورسوله معركة الحق ضد الباطل والعدل ضد الظلم، معركة خاضها الإمام الحسين وأصحابه من أجل الدين والعقيدة وقدموا فيها أرواحهم لحماية مبادئ الدين الإسلامي من الانحراف.

٤ـ كلمة الإمام في أثناء القتال

أعلن الإمام الحسين في آخر خطاب له استعداده وأصحابه للقتال، وآثروا مصارع الكرام على طاعة اللئام وانتهت لغة الحوار الذي لم يجدِ نفعاً مع قوم استحوذ عليهم الشيطان لتحل محلها لغة السيوف والرماح، ويزحف آلاف الرجال والفرسان وهم بكامل عدة القتال نحو معسكر الحسين وأصحابه، ولم يرغب الإمام أن يبدأهم بقتال حتى كانت البداية منهم، وبدأت المعركة ويصمد أصحاب الحسين وأهل بيته أمام هذا السيل الجارف من الخيل والرجال، يشد ازرهم الإيمان بالقضية التي يدافعون عنها والعقيدة التي آمنوا بها ويريدون التضحية من أجلها، وكانوا صادقين مع أنفسهم ومع سيدهم يدل على ذلك ثباتهم مع الحسين في هذا الطريق من غير تردد... إلى أن لقوا الله تعالى[1] وقد شهد لهم أعداؤهم قبل أصحابهم بالشجاعة.

ومناقب شهد العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء

يقول أحد الذين شهدوا المعركة مع ابن سعد: (ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض سيوفها كالأُسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، تلقي نفسها على الموت، لا تقبل الأمان ولا تقبل المال...)[2]، وقد أبدع أحد الشعراء في وصفهم بقوله.

قوم إذا نودوا لدفع ملمة والخيل بين مدعس ومكردس

لبسوا الدروع على القلوب يتهافتون على ذهاب الانفس

لقد واجه أصحاب الحسين وأهل بيته الموت بصدورهم العارية وحملوا أرواحهم على أكفهم، ولم يتهيّبوا من تلك الجموع الزاحفة نحوهم، لقد أخافوا الموت ولم يخفهم، فهم ماضون في طريق نصر الحسين ابن بنت نبيهم، ويقاتلون من أجل إحياء الدين، ولا

---

(١) مختارات من المحاضرات الحسينية ٢ / ٦٧٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد ١ / ٣٠٧.

يرون الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما، وهو ما عبر عنه إمامهم وقائدهم الحسين، وهكذا أُسقطوا في أرض المعركة واحداً بعد الآخر واحتسبهم الإمام الحسين عند رب رحيم، ولم يبق مع الإمام الحسين سوى أهل بيته الذين تقدموا للقتال بين يدي سيدهم، ودافعوا عن إمامهم ودينهم وعقيدتهم دفاع المستميت، وأَذاقوا العدى الموت الزؤام، وكلما سقط واحد منهم شهيداً بكاه الحسين واحتسبه عند الله، وسقطوا في أرض المعركة واحداً بعد الآخر، وكان آخرَ من استشهد منهم أخوه وحامل لوائه ابو الفضل العباس، قدموا أرواحهم جميعاً في سبيل الله ورسوله وحماية دين الإسلام، اختاروا الموت العزيز على الحياة الذليلة يقول احد الشعراء[1] :

ولما رأوا بعض الحياة مذلة ... عليهم وعز الموت غير محرمِ
أبوا أن يذوقوا العيش والذل واقع ... عليه وماتوا ميتة لم تذممِ
ولا عجب للأُسْدِ إن ظفرت بها ... كلاب الاعادي من فصيح وأعجمِ
فحربة وحشي سقت حمزة الردى ... وحتف علي من حسام ابن ملجمِ

ويجد الإمام الحسين نفسه وحيداً بين الاعداء وهو ينظر إلى أصحابه وأهل بيته مجزرين على أرض كربلاء، فعزم على مواجهة القوم بصدره الشريف، وأطلق صرخته التي دوت في أركان السموات والأرض، ورددها كل حجر ومدر «**أما من مغيث يغيثنا، أما من ناصر ينصرنا، أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله**»، ثم يتقدم الإمام نحو القوم بعد أن ودّع أطفاله وعياله وأوصاهم وصيته الأخيرة، وتفر زمر الاعداء أمامه فقتل من قتل وجرح من جرح حتى وصل إلى شاطئ الفرات وأحاط به القوم من كل جانب وحالوا بينه وبين رحله وخيامه فصاح فيهم:

«**ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين وكنتم لا**

(١) مختارات من المحاضرات الحسنية / ٢٤٤.

تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم هذه وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم أعراباً كما تزعمون، فقال له الشمر ماذا تقول يا حسين؟ قال الإمام أقول أنا الذي أُقاتلكم وتقاتلونني والنساء ليس لكم عليهن جناح فامنعوا عتاتكم وطغاتكم وجهالكم من التعرض لحرمي ما دمت حياً...»[(١)].

كانت هذه آخر كلمات الإمام الحسين مع القوم قبل استشهاده، بدأها بلفظة «**ويحكم**»، وهي اسم فعل فيه دلالة على شدة اللوم والتقريع لمن يناديه، ثم استعمل أسلوب الشرط بعد نداء القوم الذين أضافهم إلى أبي سفيان مستفيداً من دلالة هذا التركيب على الربط بين قضيتين «**ان لم يكن لكم دين... فكونوا احراراً**» لقد استعمل الإمام اداة الشرط «**إن**» لما فيها من دلالة على الشك وهو يعرف أن هؤلاء القوم ليس لهم دين يردعهم عن ارتكاب المحرمات ولا يخافون عقاب الآخرة، لذا دعاهم إلى أن يكونوا أحراراً في هذه الدنيا ويعودوا إلى أنسابهم إن كانوا عرباً كما يزعمون، قال الإمام هذا لأن العربي يأنف بطبيعته من الإساءة إلى النساء والأطفال ولو كانوا من أعدائه، هكذا هي أخلاق العرب قبل الإسلام وبعده، وقد عمل الدين الإسلامي على ترسيخ هذا المبدأ ـ وبموجبه دعاهم الإمام إلى منع جهالهم من التعرض لحرمه ما دام حياً ـ طلب منهم أن يقصدوه بنفسه لأنه هو الذي يقاتلهم.

وتستمر المعركة ويتكاثر الأعداء حول الإمام وهم يضربونه بالسيوف ويطعنونه بالرماح ويرمونه بالنبال، وهو يقاتلهم بكل قوة وشجاعة ويفرون من أمامه فهو الحسين بن علي بن ابي طالب ـ بطل توّرث من أبيه شجاعة ـ ويمضي الإمام في قتال القوم، ويحاط به من كل جانب ويقع المقدور ويصاب الإمام بسهم في صدره ويضربه رجل بالسيف على رأسه فيهوي من ظهر جواده ويخر على الأرض صريعاً، وتنعاه

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٩٤.

ملائكة السماء ويغبر وجه الأرض وتمطر السماء دماً، ويهدم ركن الإسلام وتذل بقتله رقاب المسلمين.

أولئك قوم لم يشيموا سيوفهم وقد نكأت أعداءهم حين سلتِ

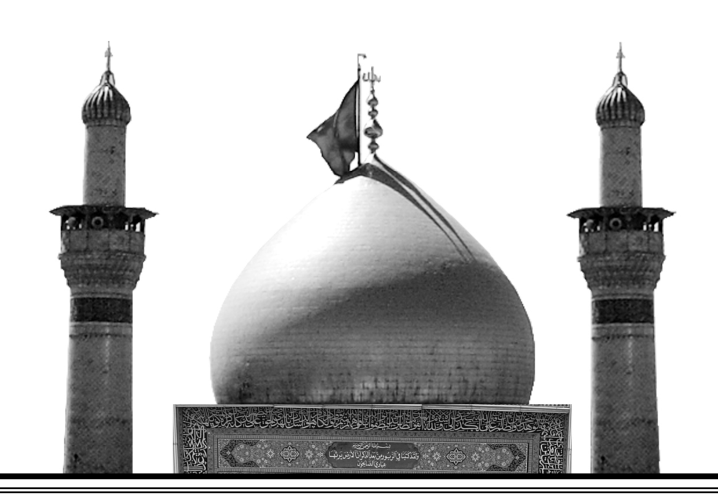
وإنّ قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلتِ

ويسقط الإمام متردّياً ثياب الموت الملطخة بالدماء من أجل إحياء الدين وعزة المسلمين.

تردى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل الا وهي من سندس خضر

وهكذا تنتهي معركة الطف التي قدّم فيها الإمام الحسين نفسه وأهل بيته وأصحابه قرباناً من أجل دين الإسلام دين جده وأبيه، فاصبح رمزاً خالداً في الدفاع عن العقيدة ومبادئ الدين ورفض الظلم، لقد كان في قتله منتصراً في دينه، في عقيدته، وقد تعلَّمت منه الأجيال في مختلف أنحاء الدنيا كيف أن النصر لا يعني كسب المعركة بمعناه المادي المحسوس، انما النصر في ثبات العقيدة ورسوخ المبدأ وخلود القضية وهذا ما حصل في معركة الطف؛ فقد خرج الإمام الحسين منها منتصراً بالرغم من استشهاده هو ومن معه، انتصر الإمام الحسين لأنه يمثل انتصار الحق على الباطل والدين على البدعة والمظلوم على الظالم انتصر الحسين وكان مناراً خالداً يهتدي به الثائرون وأصحاب الحق والمظلومون في الأرض، وقد أصبح انتصار الحسين مدرسة تعلمت منها الأجيال معاني التضحية والشجاعة والصبر والدفاع عن العقيدة، لقد جسد الإمام الحسين في هذه المرحلة من خطابه قوة العزم والتصميم والارادة في الثبات على المبادئ والدفاع عنها مهما كان الثمن غالياً، وقد استنفد في بنية هذا الخطاب كل مسالك الحوار مع الأعداء، وأخلص في نصحهم وإرشادهم ولكنهم لم يسمعوا ما يقول، وكأنهم قدروا من حجر لا حياة فيه.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي



الفصل الخامس

الخطاب الحسيني بين المنشئ والمقام

مدخل

بعد هذه الرحلة التي أمضيتها مع خطاب الإمام الحسين (عليه السلام) في معركة الطف، وهي رحلة تنبعث من كل جوانبها رائحة الألم الممض وتبعث في النفس ظلالاً من الحزن، لأن فيها تصويراً دقيقاً لمأساة الإمام الحسين وأهل بيته، ولا ريب ان من يدرس خطاباً مثل خطاب سيد الشهداء، ويدخل في تفاصيل تراكيبه وينظر إلى المقام الذي قيل فيه في كل مرحلة من مراحله التي تقدم ذكرها، يبرز أمامه أمران يمكن الوقوف عندهما بوصفهما مرتكزين أساسيين في بناء هذا الخطاب، ولهما أثر كبير في تحديد أبعاده، هما:

١- شخصية المنشئ الإمام الحسين (عليه السلام).

٢- واقعة الطف وتمثل المقام الذي قيل فيه الخطاب.

١- شخصية المنشئ

إن الحديث عن سيد الشهداء الإمام الحسين لا يمكن الإحاطة به في مثل هذه الصفحات، ان كل يوم من أيام الحسين يمكن أن يكون موضوعاً لمئات الدارسين، وما أريد بيانه هنا هو الأثر الذي تركته شخصية الإمام الحسين في أسلوب خطابه.

الإمام الحسين، إمام معصوم جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبوه سيد البلغاء وإمام الفصحاء الإمام علي بن أبي طالب، صاحب نهج البلاغة وأمه فاطمة الزهراء، وهو وارث علم جده وأبيه وله مكانة كبيرة عندهما، يدل على ذلك تلك

الأحاديث التي رويت عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حقه وحق أخيه الحسن، فهو سيد شباب أهل الجنة، ومن أحب أن ينظر إلى سيد أهل الجنة فلينظر إلى الحسين، وهو من الرسول والرسول منه:

«**حسين مني وانا من حسين**»[١].

ويبدو واضحاً ان المقصود من هذا الحديث ليس مسألة النسب انما المقصود هو وحدة المنهج والفكر والهدف والروح الرسالية[٢]، فالحسين يمثل امتداداً للرسالة المحمدية فكراً ومنهجاً.

أحب الله من أحب حسيناً، وحسين سبط من الأسباط[٣] كل هذه الأقوال صادرة عن الرسول الأعظم وغيرها تمثل المكانة الكبيرة للإمام الحسين عند الرسول في حياته، وسوف يحتفظ بها الحسين بعد وفاة جده بين المسلمين عامة وأهل البيت خاصة، وإذا تجاوزنا مكانة الإمام الحسين عند الرسول والمسلمين إلى الصفات الأخرى، نجد أنفسنا أمام قائد تكاملت لديه مؤهلات القيادة بكل أبعادها، من شجاعة وقوة وسماحة وكرمٍ وصبرٍ وعزة نفس وعظمة لا يمكن لمخلوق في عصره أن يرقى إليها، وهذا هو الميراث العظيم الذي ورثه الإمام من جده وأبيه وأخيه، ومن جذور تمتد إلى أبي طالب وعبد المطلب بن هاشم، ولا ريب في أن خطاباً يصدر عن الإمام الحسين يكون له دور فاعل في نفوس السامعين لا يرقى إليه خطاب آخر، فالإمام الحسين ليس شخصاً عادياً مثل غيره من المتكلمين، انما هو إمام معصوم وولي أمر المسلمين في عصره، وفضلاً عن هذا فهو يمثل امتداداً فكرياً تتصل جذوره بجده رسول الله وأبيه أمير المؤمنين، وهو يمثل

---

(١) سنن الترمذي ٥ / ٣٢٥، دار الفكر بيروت.

(٢) ينظر مختارات من المحاضرات الحسينية / ٥٠١.

(٣) سنن الترمذي ٥ / ٣٢٥.

بدقة تلك الأفكار التي حملتها الرسالة المحمدية، ويسعى إلى تطبيقها والعمل بها مهما كان الثمن، ومن هنا يكتسب الخطاب الحسيني أهميته الكبيرة، ويكون له دور فاعل في إصلاح المجتمع الإسلامي وبنائه، وحماية الدين الإسلامي من الانحراف، وهذا هو الهدف الذي خرج الحسين من أجل تحقيقه، وهو الهدف الذي جعل الإمام الحسين يمتنع من إعطاء البيعة ليزيد، لأن موافقة الإمام على هذه البيعة يعني إضفاء الشرعية على هذا الحكم الذي أمات الدين وأحيا البدعة ونشر الظلم وأباح المحرمات، وقد حدد الإمام هذا الهدف في واحد من خطاباته حين قال:

«**اني لم أخرج اشراً ولا بطراً انما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي**».

ويبدو واضحاً أن ما يتردد على ألسِنة الدارسين من أن الحسين خرج ليغير نظام الحكم في عصره، ويقيم دولة بدلاً من دولة الامويين، أو ان الحسين خرج ليستشهد ويقتل، كلاهما امر لا يمكن القطع بصحته، لقد خرج الإمام الحسين لأداء واجب لم يؤد، واكمال رسالة لم تكتمل، ومن هنا تكون إقامة الدولة الجديدة او الشهادة نتيجة من نتائج خروج الإمام الحسين وليس هي الهدف(١).

لقد وضع النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تعاليم الإسلام بين الناس، وبيّن لهم حدود الله أوامره ونواهيه، وحدد مبادئ الدين الجديد واستطاع بعد صراع عنيف مع المشركين أن ينشر هذه المبادئ فآمن به الناس واتبعوه، ولكن هذه الحال لم تستمر فقد بدأ الانحراف عن مبادئ دين محمد بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وحدث ما حدث وقد رسم لنا القرآن الكريم صورة هذا الانحراف قبل حدوثه حين قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ المائدة / ٥٤.

(١) مختارات من المحاضرات الحسينية / ١٠٧.

وقد جسد الإمام الحسين هذا المبدأ في مسلكه فجاهد في سبيل الله حتى نال الشهادة.

لقد بلغ الانحراف أشده في حكم يزيد بن معاوية، فلم يعمل بأوامر الله ونواهيه، وانحرف الناس عن مبادئ دينهم وفسد الحكام والعلماء فعملوا على تحريف كل شيء وزيفوا الحقائق وأصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وانحرف الدين عن مساره الصحيح(١).

وبسبب من هذا الخطر الداهم الذي يهدد الدين الإسلامي رأى الإمام الحسين ضرورة القيام بعمل جهادي يحاول فيه إصلاح هذا المسار والدفاع عن مبادئ دين جده وحمايتها من الانحراف، لقد كان واجباً على الإمام الحسين ان يقوم بهذه الحركة لتكون درساً على مر العصور والأزمان كما أصبح جهاد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في سبيل الله درساً على مر السنين في تاريخ الدنيا، وقد ادى الإمام الحسين هذا الواجب ليغدو درساً عملياً للمسلمين وغيرهم على مر تاريخ البشرية(٢).

وهذا ما حصل فعلاً فقد أصبح الإمام الحسين وثورته وخطابه في معركة الطف من أجل العدل والدين منارات اهتدى بها المسلمون وغير المسلمين، ومدرسة تعلم فيها كل الثائرين دروساً في التضحية والفداء وكل الثورات التي نهض بها العلويون وغيرهم ضد الحكم الاموي ثم الحكم العباسي اتخذت من ثورة الحسين وتضحيته منهجاً في ثوراتها، وإذا تجاوزنا ما تعلمه العرب من الإمام الحسين وثورته وهو كثير، فان غير العرب قد تعلموا من مدرسة الإمام الحسين دروساً بنوا عليها كثيراً من الأسس

---

(١) مختارات من المحاضرات الحسينية / ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه / ١٠٠.

الاجتماعية والدينية والسياسية، وعرفوا دروساً في الوفاء والتضحية والدفاع عن المبادئ يقول الزعيم الهندي غاندي:

«لقد تعلمت من الإمام الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر، ولو كان لي عشرة من أنصاره لفتحت الدنيا».

ان هذا الكلام الذي صدر من زعيم دولة كبيرة فيها مئات الملايين من البشر، له دلالة كبيرة على عظمة الإمام الحسين ورسوخ المبادئ التي أرساها هو وأصحابه لكل الثائرين ضد الظلم في كل الدنيا، ويمكن أن نلمح في هذا القول ظلالاً من المعاني تشير إلى صدق الايمان بالمبدأ عند أصحاب الحسين وتضحيتهم من أجله، ويقول أيضاً:

«ولقد طالعت بدقة حياة الإمام الحسين شهيد الإسلام الكبير، ودققت النظر في صفحات كربلاء واتضح لي ان الهند اذا أرادت إحراز النصر فلابد لها من اقتفاء سيرة الإمام الحسين)[(١)]».

إن هذا القول يدل على أن هذا الزعيم الثائر قد هضم المنهج الحسيني في الوقوف بوجه الظلم، ومن هنا تبدو عظمة المدرسة الحسينية وان الشعوب إذا أرادت مواجهة الظلم والانتصار عليه فأمامها منهج واضح وتجربة رائدة في هذا الميدان يجب عليها الاقتداء بها والسير في هداها، انها مدرسة الإمام الحسين وأصحابه.

ومثلما تحدث السياسيون والقادة عن الإمام الحسين وثورته تحدث عنها الأدباء، فقد اهتزت مشاعرهم لذلك الحدث المؤلم وتلك المأساة الكبيرة، وقد عبر عن هذه المشاعر عدد من الأدباء العرب وغير العرب، بأقوال مختلفة، يقول المستشرق الالماني بروكلمان:

---

(١) اخذت نصوص هذه الاقوال من موضوع بعنوان (قالوا في الإمام الحسين وفي واقعة الطف) نشر في جريدة (المحافظة) تصدر عن محافظة النجف العدد الخامس عشر، السنة الثانية / محرم / ١٤٢٠.

«انه لحق ان ميتة الشهداء التي ماهّا الحسين بن علي قد عجلت في التطور الديني لمحبي علي وجعلت من ضريح الحسين في كربلاء أقدس محجة».

وتقول إحدى الكاتبات الغربيات:

«ان مأساة الحسين تتغلغل في كل شيء حتى تصل إلى الاسس، وهي من القصص القليلة التي لا استطيع قراءتها قط من دون أن ينتابني البكاء».

وهذا هو الحق وكل من يقرأها ينتابه البكاء فهي أعظم مأساة عرفتها الإنسانية في تاريخها، ويقول كاتب انكليزي:

«إن مأساة الحسين بن علي تنطوي على أسمى معاني الاستشهاد في سبيل العدل الاجتماعي».

والعدل من أهم الأسس التي قامت ثورة الحسين من أجلها وسعت إلى القضاء على الظلم والظالمين، لكي يسود العدل الإسلامي كما ترسمه مبادئ الدين الإسلامي.

ويقول أحد المفكرين الغربيين:

«لو كان الحسين معنا لجعلنا له في كل مكان منبراً ولدعونا الناس للمسيحية باسم الحسين»[١].

ويصدق هذا على ما يقوم به أتباع أهل البيت، فالحسين له منبر في كل قلب وفي كل مكان، وتطول القائمة فما ورد هنا هو غيض من فيض مما قيل في شخصية الإمام الحسين، فالحسين إمام معصوم، وقائد ثورة ومصلح اجتماعي ومدافع عن عقيدة، ومن أهل بيت النبي، وولي أمر المسلمين في عصره، كل هذه الاتجاهات وغيرها تجعل للخطاب الذي يصدر عنه أهمية كبيرة على مختلف المستويات في الحياة الدنيا، ومن هنا تأتي شمولية الخطاب الحسيني في الميدان الديني والسياسي والاجتماعي والنفسي، ويعد ما

(١) جريدة المحافظة العدد الخامس عشر / محرم / ١٤٢٠.

ورد فيه من أفكار وآراء ودعوات وتوجهات منهج عمل يسير عليه المسلمون وغير المسلمين في المواقف التي تماثل المقام الذي قيل فيه، ويستلهم منه الثائرون بوجه الظلم والمدافعون عن المبادئ والداعون إلى العدل الدروس والعبر التي يسيرون عليها في مناهجهم ودعواتهم لقد وضع الإمام الحسين في خطابه الذي ألقاه في معركة الطف بمراحلها المختلفة الأسس العامة للدولة الإسلامية التي أراد أن تكون واحدة من النتائج التي نهض من أجل تحقيقها، وقد رسم فيه المنهج العام الذي ينبغي أن يتحلى به الثائرون في هذا الكون من إيمان وتضحية وصبر وثبات وعزيمة وصمود وزهد وتقوى ووفاء وإخلاص، كل هذه الصور تجتمع مع الحسين وأهل بيته وأصحابه لتظل مناراً يهتدي به الناس في مختلف عصورهم.

٢ـ مقام الخطاب الحسيني وأبعاده

لم يكن المقام الذي قيل فيه الخطاب الحسيني متماثلاً ولا مقاماً اعتيادياً، لم يكن المقام متماثلاً لانه قيل في أماكن مختلفة وعبر فيه الإمام عن أهداف متنوعة، لقد بدأت مسيرة هذا الخطاب في المدينة وحين انتقل الإمام منها إلى مكة وأقام فيها اتخذ خطابه مساراً محدداً، وحين عزم على مغادرة مكة والمسير إلى العراق حدث تغير في المسار العام لهذا الخطاب وأصبح مرتبطاً بالأحداث التي قيل فيها، ويمكن ان نجد مثل هذا حين وصل الإمام إلى كربلاء وأمر أصحابه بالنزول فيها، ويمكن القول: إن اختلاف الاماكن التي مر بها الإمام الحسين والأحداث التي واجهت مسيرته أسهمت بشكل كبير في اختلاف المقام بين خطاب وآخر، أمّا كون المقام غير اعتيادي فلأنه مقام اعداد لثورة ودفاع عن عقيدة وتغيير مجتمع بدأ ينسلخ من دين الإسلام ويتجه اتجاهاً مغايراً، ومن هنا تأتي إشارة الإمام الحسين في واحد من خطاباته إلى انه يدعو إلى إحياء السنة وإماتة البدعة التي بدأت تسود في أوساط المجتمع الإسلامي في ظل الحكم الاموي.

وبصرف النظر عن تعدد المقامات في أجزاء الخطاب الحسيني وارتباط كل خطاب بالمكان والظرف الذي قيل فيه؛ فان الخطاب الحسيني في معركة الطف بمختلف أجزائه يرتبط بمقام عام هو الثورة ضد الظلم والفساد والانحراف والباطل، ومن هنا نجد الإمام الحسين يركز في مجمل خطابه وبمختلف الأبعاد التي يمثلها على أمور من أهمها.

١ ـ الوعظ والارشاد من أجل العمل بمبادئ الدين الإسلامي والحفاظ عليها.

٢ ـ التزهيد في الدنيا و الدعوة إلى عدم الاغترار بها لانها لا تدوم على حال، والدعوة إلى العمل من أجل الآخرة.

٣ ـ كشف الحقيقة التي يمثلها الحكام الامويون، وبيان أعمالهم السيئة أمام المسلمين.

٤ ـ الترغيب في الجهاد والثورة ضد الظلم والظالمين ونصرة الحق وأهله.

٥ ـ الدعوة إلى نصرة الدين الإسلامي وإحياء مبادئ الرسالة المحمدية بعد أنْ بدأ الناس بالانحراف عنها وإحياء البدع وإماتة السنن.

٦ ـ كشف الأهداف التي ثار من أجلها وامتنع عن إعطاء البيعة ليزيد مركزاً على أنّ الهدف الأساس من خروجه ودعوته هو طلب الإصلاح في امة جده، ومن هنا فهو لا يبالي بما يحصل من نتائج في سبيل تحقيق هذا الإصلاح وان كانت حياته ومن معه هي الثمن وهذا ما حصل فعلاً.

وفي هذه المقامات التي يجمعها مقام عام صاغ الإمام تراكيب خطابه في مراحله المختلفة، وقد اتضحت في أسلوب هذا الخطاب ودلالاته أبعاد مختلفة مثلت البناء العام لهذا الخطاب والمنطلقات التأسيسية لأفكاره العامة بوصفه مدرسة يفيد منها المتلقي في مختلف ميادين الحياة، ويمكن تحديد أهم هذه الأبعاد بما يأتي.

١- البعد التوحيدي

الإمام الحسين حامل رسالة وإمام معصوم، وهو مؤمن بإرادة الله راض بما يقدره عليه، يلتجئ إليه في كل الامور ويستمد منه العون، وقد مثل هذا الاتجاه مساحة كبيرة من بنية الخطاب الحسيني، وتضمنت بنية خطابه كثيراً من التراكيب التي تعبر عن الإيمان بوحدة الله والرضا بقضائه وتسليم الأمر إليه، ويمكن أن نجد ظلالاً من معاني الوعظ والإرشاد في هذا الاتجاه، يقول:

«رضا الله رضانا أهل البيت رضىً بقضائك وتسليماً لامرك لا معبود سواك يا غياث المستغيثين».

وتبدو نزعة التوحيد واضحة في هذا النص، وفي كثير من النصوص نجده يشير إلى اعتصامه بحبل الله وتوكله عليه وهو يحتسب كل شيء عنده، ويمكن أن نجد كثيراً من الصور التي تمثل هذا البعد في خطاب الإمام الحسين[1]، ويمكن القول: إن هذا هو الذي يمثل الاتجاه الغالب في بنية الخطاب الحسيني.

٢- البعد الحماسي

الخطاب الحسيني خطاب ثورة، وخطاب معركة فلا غرابة ان يمثل البعد الحماسي جانباً كبيراً من بنية هذا الخطاب سواء أكان ذلك فيما قاله أم فيما تمثل به، ذلك أن خطاب الحرب والقتال وما ينصرف إليه من دلالات تمثل الدفاع عن الهدف وإقناع السامع بما يقوله المنشئ، كل ذلك يتطلب توافر الخطاب على جانب حماسي، ويبدو ذلك واضحاً في مختلف مراحل خطابه ويزداد بروز هذا البعد خلال المعركة، وغلبة هذا الجانب هو ما يتطلبه المقام العام الذي قيل فيه الخطاب، لأن مثل هذا المقام لا يجوز فيه إظهار الضعف والاستسلام في مخاطبة العدو فيجعله طامعاً في المزيد، ومن هنا كان من

(١) مختارات من المحاضرات الحسينية / ٨٠.

الواجب إظهار الحماس والقوة والشجاعة في الخطاب والابتعاد عن مبدأ الخضوع، لذا نجد التراكيب التي تمثل هذا البعد تسيطر على كثير من فقرات الخطاب الحسيني، أو ما تمثل به من كلام العرب، وقد وصف الإمام الحسين بانه «**سيد أهل الإباء**»[(١)]، لقد كان هذا الوصف دقيقاً في بيان موقف الإمام في معركة الطف، فقد وقف شامخاً أبياً صامداً في أرض كربلاء ورياح الحرب تعصف حوله من كل جانب، وظل كذلك حتى آخر لحظة من حياته، قال في المعركة مرتجزاً.

المـوت اولى مـن ركـوب العـار　　　والعـار أولى مـن دخـول النـار

وصرخته الخالدة «**هيهات منا الذلة**» تجسد أعظم صورة للإباء ورفض الخضوع مهما كانت النتيجة، وموته بعز أفضل من حياة بذل، «**لا ارى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما**».

ويمكن أن نلمح صورة رائعة من صور الحماس التي تمثل أعظم رمز للعزم والصمود في قوله:

«**والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أُقر لكم إقرار العبيد**».

انه قسم عظيم على رفض الظلم والذل والخضوع يقف السامع مبهوراً أمامه.

وقد يدخل في تصوير البعد الحماسي ما تمثل به الإمام الحسين من كلام العرب في إثناء خطابه ومنه قول الشاعر.

فـإن نهـزم فهزامـون قدمـاً　　　وإنْ نهـزم فغيـر مهزمينـا
ومـا إن طبنـا جـبن ولكـن　　　منـايانا ودولـة آخرينـا

ان ما تقدم يمثل جانباً من التراكيب التي تمثل البعد الحماسي في خطاب الإمام الحسين في معركة الطف، ويمكن أن نجد شواهد كثيرة تمثل هذا البعد من أهمها؛ ذلك

(١) مختارات من المحاضرات الحسينية / ٨٠.

الموقف الرائع الذي وقفه الإمام الحسين وحيداً وسط المعركة صامداً أمام مئات السيوف والرماح والرجال والفرسان انها صورة لا يمكن أن يصورها القلم، هذا فضلاً عما قاله وارتجز به في أثناء القتال.

٣- بعد الرفض

لم يكن الرفض في الخطاب الحسيني بعيداً عن الواقع الاجتماعي والسياسي والديني الذي كان سائداً في عصره، ذلك أن هذه الجوانب من الحياة قد بدأ التحلل يدخل في كثيرٍ من مفرداتها، وبدأت تظهر في كل جانب من هذه الجوانب مظاهر لم تكن معروفة في بداية الدعوة الإسلامية، وقد كثرت في الجانب الديني ظواهر فيها خروج على مبادئ الدين الإسلامي.

ومن هنا كان جانب الرفض في الخطاب الحسيني، وهو رفض مدروس يهدف إلى الإصلاح في البنية الاجتماعية والسياسية والدينية، ويلتقي هذا الرفض مع هدف الإمام من خروجه وهو طلب الإصلاح في أمة جده، ويطابق تماماً المسار الذي رسمه الإمام الحسين لثورته ضد الظلم والانحراف، لذا نجد في خطابه طائفة من التراكيب عبر بها الإمام عن الرفض المطلق لكثير من التوجهات في الجانب السياسي والجانب الديني والاجتماعي. وأول ما يمثل هذا الاتجاه هو رفضه لواقع الحكم السائد في العالم الإسلامي، وقد تجسد ذلك في رده على والي المدينة الوليد بن عتبة حين طلب منه البيعة ليزيد قال له الإمام:

«... **ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة ومثلي لا يبايع مثله...**».

ويبدو طابع الرفض واضحاً في تراكيب هذا الخطاب، وهو رفض للواقع السياسي الذي يمثله حكم يزيد بن معاوية، ومثل ذلك ما ورد في خطابه مع القوم عشية العاشر من محرم يقول:

«الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة...».

وهذا رفض قاطع لما يطلبه منه الأعداء وتبدو ملامح الرفض واضحة في كل كلمة من مفردات هذا النص، وقد ربط الإمام بين رفضه لهذا الواقع وبين رفض الله ورسوله والمؤمنين لمثل هذا الموقف، إنه رفض لواقع مرير كان يعيشه المسلمون ويتحملون تبعاته في ظل حكم يسير فيه كل شيء في الاتجاه المعاكس لمبادئ الدين الإسلامي، ويراد له أن يدوم ويستمر في حكم المسلمين.

٤- البعد الأخلاقي

الإمام الحسين، يمثل امتداداً لمنهج جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم / ٤.

فلا غرابة أن يمثل البعد الأخلاقي والإنساني جانباً مهماً من جوانب الخطاب الحسيني فالخطاب الحسيني في كثير من تراكيبه وأساليبه هو خطاب إنساني وأخلاقي، ويبدو البعد الأخلاقي والإنساني واضحاً في موقف الإمام الحسين وأصحابه من الحر وأصحابه في أول لقاءٍ بينهم، فقد أمر الإمام الحسين أصحابه بمساعدتهم وتقديم الماء لهم، كذلك في أمره بعدم ابتداء القوم بالقتال، ويتضح هذا الموقف أكثر في حرص الإمام على إرشاد القوم ونصحهم حتى لا يقعوا في المحظور ويحاسبهم الله بسببه، إنه من أعظم المواقف الإنسانية في معركة الطف، ومما يمثل هذا الجانب الخطاب الذي ألقاه الإمام على أصحابه وأهل بيته قبل المعركة وأخبرهم فيه أن القوم لا يطلبون غيره، ومن أراد منهم أن ينجو بنفسه فليتخذ الليل جملاً وهو في حل من أمره وليس عليه ذمام، ومن ذلك أيضاً ما ورد في بعض أقواله:

«ان الحلم زينة والوقار مروءة والصلة نعمة، والاستكبار صلف والسفه ضعف، والغلو ورطة، ومجالسة الدناءة شين، ومجالسة أهل الفسق ريبة»(١).

ان كل فقرة من فقرات هذه الكلمة تصلح أن تكون عنواناً لدرس أخلاقي تكتب فيه مؤلفات، ولا نستغرب ذلك من الإمام الحسين فهو إمام عصره ووارث جده وأبيه ويمثل خطابه في الجانب الأخلاقي امتداداً لخطاب جده وأبيه في هذا الميدان.

٥- البعد الوعظي والإرشادي

لقد كان الإمام الحسين واعظاً ومرشداً في خطابه مع القوم وبخاصة في أرض كربلاء، فقد رأى الإمام أن المقام يتطلب هذا النوع من الخطاب، فهو إمام العصر ووارث الرسول أولاً وهؤلاء القوم قد خدعهم أسيادهم وأولياء أمرهم، وضللوهم عن طريق الصواب، وزينوا لهم حب الدنيا فاستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم كل شيء. ومن هنا كان الإمام يرى أن من حقهم عليه أن يعظهم ويرشدهم إلى طريق الهدى والصواب، لذا نرى أن نزعة الإرشاد والوعظ تدخل مراحل الخطاب المختلفة، وتهيمن على أغلب تراكيب الخطاب، وقد تنوعت أساليب الوعظ عند الإمام؛ فهو مرة يبين لهم طريق الحق وأهله ويطالبهم باتباع هذا الطريق لأن فيه رضا الله؛ ومرة يذكرهم بضرورة الوقوف بوجه السلطان الجائر والحاكم الظالم ويجعل ذلك واجباً شرعياً؛ واحياناً يدعوهم إلى العمل من أجل الآخرة لأنها دار البقاء ويزهدهم بالدنيا لانها دار فناء لا تدوم على حال، ومن أمثلة ذلك قوله:

«الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم».

وقوله:

«من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل...».

---

(١) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر / ٥٨.

وقوله:

«انه قد نزل من الامر ما قد ترون وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وادبر معروفها واستمرت حذاء فلم يبق منها...».

لقد مثلت هذه النصوص وغيرها كثير الجانب الوعظي والإرشادي في خطاب الإمام الحسين وقد ظلت هذه التراكيب حية مستمرة إلى يومنا هذا تفيد منها الأجيال في الميدان الاجتماعي والديني.

٦- البعد التذكيري والاجتماعي

يمثل هذا البعد بجانبيه مرتكزاً من مرتكزات الخطاب الحسيني، فقد كان خطاب الإمام الحسين في جانب من بنائه تذكيرياً، وقد وردت في بنية الخطاب تراكيب كثيرة تمثل التذكير بأمور كثيرة لا لأن القوم يجهلون ما يذكر به، فهم يعرفون كل شيء، وتبدو تراكيب الخطاب التذكيرية واضحة في تذكيرهم بصلته بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وذكرهم بقول الرسول فيه وفي أخيه بأنهما سيدا شباب أهل الجنة، وذكرهم بأنه وارث علم الرسول، وانه ابن بنت نبيهم ثم ذكرهم بأبيه وعمه وعم أبيه، ووقف طويلاً ليذكرهم بما أرسلوه إليه من كتب ووفود يطلبون منه القدوم إلى بلدهم، لقد مثلت هذه الأمور وغيرها بنية العديد من تراكيب خطابه، ومن هنا اكتسب الجانب التذكيري أهمية كبيرة وشغل حيزاً كبيراً من بنية الخطاب الحسيني. أمّا الجانب الاجتماعي فقد تمثل في بيان المكانة الاجتماعية للإمام الحسين، وحرصه على الحفاظ على تقاليد العرب وعاداتهم الاجتماعية سواء أكان ذلك في الجاهلية أم في الإسلام ففي اشتداد المعركة ومحاولة القوم التعرض إلى عيال الإمام ونسائه دعاهم إلى الرجوع إلى أحسابهم إن كانوا عرباً يقول:

«ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم، انا أُقاتلكم وانتم تقاتلونني والنساء ليس عليهن جناح...».

إن الإمام الحسين في هذا الكلام يشير إلى ظاهرة اجتماعية كان العرب يعتزون بها في عصر ما قبل الإسلام وبعده، وقد عمل الإسلام على ترسيخ هذه الظاهرة والحفاظ عليها، وتمثل هذه الظاهرة رعاية النساء والأطفال وعدم التعرض لهم في الحروب ولو كانوا من الأعداء.

لقد مثلت هذه الأبعاد وغيرها مما يدخل في ضمنها البنية العامة للخطاب الحسيني، وشكلت المرتكزات الأساسية التي انطلق منها الإمام ليرسم من خلالها المنهج العام للمسلمين وغيرهم، ويمكن أن يفيد منها أهل الدين وأهل السياسة وأهل الفقه وأهل الاجتماع وغيرهم، ذلك أن ما ورد في هذا الخطاب في مراحله الثلاث يمكن أن يكون منهجاً للدولة الإسلامية في المنظور الحسيني، وقد أصبح هذا الخطاب خالداً خلود القضية الحسينية، لانه يمثل الإطار العام لثورة الإمام الحسين ويمثل الوجه الإعلامي لها.

لقد ارتبط هذا الخطاب ارتباطاً وثيقاً بالإمام الحسين، فهو الكلام الذي عبر فيه الإمام الحسين عن أفكاره وتوجهاته ومقاصده ابتداءً من رفضه البيعة ليزيد بن معاوية حتى استشهاده هو وأصحابه في معركة الطف، وقد مثلت أبعاد هذا الخطاب مسارات للدارسين على مر العصور، فكل منهم يجد في جانب منها ضالته في البحث، وقد اكتسب هذا الخطاب صفة الخلود، لأنه كلام الإمام الحسين أولاً، ولأنه قيل في معركة الطف ثانياً فهو خالد من جهة المنشئ والمقام، وقد ظل هذا الخطاب منذ القرن الأول للهجرة إلى وقتنا الحاضر يمثل مدرسة تفيد منها الاجيال بمختلف أفكارها واتجاهاتها، فهو منار للثائرين وأصحاب الحق والمظلومين والقادة والسياسيين والأدباء كل منهم يستفيد من جانب من جوانب هذا الخطاب ويبني عليه أفكاره وتوجهاته.

لقد أضفت واقعة الطف وما حدث فيها من مآس أذهلت العالم طابعها على الخطاب الحسيني، ومنحته تأثيراً في نفوس السامعين والقراء، وبالرغم من أن الخطاب

قيل قبل هذه الواقعة لكنه في واقع الحال كان تصويراً دقيقاً لما سيحدث في هـذه المعركـة وتحديد أبعادها ونتائجها وما يترتب عليها، وقد حدد الإمام في مراحل خطابه كـثيراً مـن الأحداث التي تقع قبل وقوعها، وتبدو إشارة الإمـام واضــحة إلى هـذه الواقعـة في أول خطبة له حين غـادر مدينـة مكـة باتجـاه العـراق، إذ نجـد أشـارة غـير مباشـرة إلى حقيقـة مصرعه في هذه الواقعة يقول:

«كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء...».

لقد حدثت في معركة الطف مآس وجـرائم فـوق حـدود الوصـف، وقـد أثـارت هذه الأحداث مشاعر المسلمين جميعاً، وظلت صورها عالقة في الأذهـان إلى يومنـا هـذا يقول أحد الكتاب الغربيين:

«حدثت في واقعة الطف فظائع ومآس صارت فيما بعد أساساً لحزن عميق في العاشر من شهر محرم من كل عام، فقد أحاط الأعداء في المعركة بالحسين وأتباعه وكان بوسعه أن يعود إلى المدينة لو لم يدفعه ايمانه الشديد بقضيته إلى الصمود ففي الليلة التي سبقت المعركة... وفي صباح اليوم التالي قاد الحسين أصحابه إلى الموت».

إنّ الذي أوحى إلى الكاتب هذا القول هو ما يراه من تجدد الحزن في اليـوم الـذي حدثت فيه المأساة من كل عام، ويقول عباس محمود العقاد:

«فما أظلت فيه السماء مكاناً لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء».

لقد آمن الإمام الحسين بمبدأ وقاد ركبه من أجل قضية إلى أرض كربلاء، لتحقيـق هدف محدد هو الدفاع عن الدين وطلب الإصلاح، وقد آمـن الحسين بـدفع الـثمن مـن أجل هذه القضية مهما كان غالياً.

ومن هنا تأتي تضحية الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه، ليكونوا القربان الذي يمهد الطريق لإحياء الدين الإسلامي، واكتسبوا من خلال هذا الخلود الأبدي، لقد أصبح منهج الحسين وخطابه مدرسة خالدة حملت منها جحافل الثائرين مشاعل النور التي تضيء دياجير الظلام في كل مكان، ونهلت منها جموع المظلومين مبادئ الوقوف بوجه الظالمين، وأفادت منها الأجيال معاني التضحية والفداء من أجل المبادئ، لقد مات الحسين جسداً ولكنه لم يمت ثورة ومبادئ وعقيدة ومنهجاً وخطاباً، وقد ألهمت قضية الحسين وثورته وتضحيته مئات الآلاف من الأُدباء والشعراء والعلماء فكانت منهلاً عذباً أخذ منه القدامى والمحدثون من المبدعين، ما شاءوا وكتبوا عنه ما أرادوا، وقد ألهمت هذه القضية الشعراء روائع القصائد التي كتبت في رثاء الإمام الحسين وتصوير هذه المأساة.

سلام عليك أبا عبد الله يوم ولدت، ويوم استشهدت ويوم تبعث حيا.

ألم ترَ أن الارض أضحت مريضة	لقتل حسين والبلاد اقشعرتِ
وإنّ قتيل الطف من آل هاشم	أذلّ رقاب المسلمين فذلتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رزية	لقد عظمت تلك الرزايا وجلّتِ

لقد أصبحوا رزية من رزايا الدهر تفيض من أجلها دموع العيون كلما ذكرت، وتدمي القلوب حزناً عليها.

رزايا أرتنا خضرة الأرض حمرة	وردت أُجاجاً طعم كل فرات
سأبكيهم ما ذرّ في الارض شارق	ونادى منادي الخير للصلوات

قتل الأعداء الحسين جسماً ولكنهم لم يقتلوه روحاً ومنهجاً وعقيدة ومذهباً، قتلوا الحسين فكان قتله انتصاراً وحياة وخلوداً أبدياً، قتلوا الحسين فكان في قتله إحياء دين جده، قتلوه فكان القربان الذي به حماية الدين وانتصار المبادئ، قتل

الحسين في سبيل دين الإسلام بعد ما كاد الكفر يهدم ما بناه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

قد أصبح الدين منهم يشتكي ... وما إلى أحد غير الحسين شكا
فما رأى السبط للدين الحنيف ... إلاّ إذا دمه في كربلا سفكا
وما سمعنا عليلاً لا علاج له ... الا بنفس مداويه اذا هلكا
بقتله فاح للاسلام نشر هدى ... فكلما ذكوته المسلمون ذكا

سلام عليك وعلى أخيك أبي الفضل العباس والنجوم الزاهرات من أهل بيتك، سلام عليك حين وقفت على جسده الشريف ولسان حالك يقول:

اليوم آل إلى التفرق شملنا ... اليوم حُلّ من البنود نظامها
اليوم نامت أعين بك لم تنم ... وتسهدت اخرى فعز منامها

سلام عليك أبا الفضل ويهنيك النعيم.

أأخي يهنيك النعيم ولم أخل ... ترضى بأن أُرزى وانت منعم
هذا حسامك من يذل به العدى ... ولواك هذا من به يتقدم

سلام عليك وعلى أنصارك الذين قضوا بين يديك، وبذلوا أرواحهم من أجل دين جدك، سلام عليهم ورضوان من الله، سلام عليكم يا من لبستم قلوبكم فوق الدروع وحملتم أرواحكم في أكفكم ومشيتم نحو الموت مشية الأسود فكنتم الخالدين.

قوم اذا نودوا لدفع ملمة ... والخيل بين مدعس ومكردس
لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا ... يتهافتون على ذهاب الانفس

سلام على النحور الداميات، سلام على الدماء الجاريات سلام على الأجساد المعفرات، سلام على الشفاه الذابلات، سلام على الرؤوس المقطعات، سلام على القلوب الظاميات.

ان كـان عنـدك عـبرة تجريهـا فـانزل بـأرض الطـف كـي نـسقيها
فعسى نبـل بهـا مـضاجع صـفوة مابلــت الأكبــاد مــن جاريهــا
وذكـرت اذ وقفـت عقيلـة حيـدر مذهولـة تـصغي لـصوت أخيهـا
هـذي نـساؤك مـن يكون إذا سـرت في الاسـر سـائقها ومـن حاديهـا

سلام عليك وعلى أهل بيتك وانصارك رزقنا الله شفاعتكم في الدنيا والآخرة، ياليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً.

وها أنا قدمت إلى حضرتك ببضاعتي المزجاة، وعفوك عن مقدمي.

قـدمت وعفـوك عـن مقـدمي أسـيراً كـسيراً حـسيراً ظمـي
فمـذ كنـت طفـلاً عرفـت الحسين مـلاذاً بأسـواره أحتمـي

سلام عليك ياسيدي فلولا دمك ما استقام دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

لـولا الحـسين لغـام الافـق وانـدلعت شـرارة وطغـى للغـي طوفـان
والنـاس عـادت إلـيهم جـاهليتهم وقدسـت بعـد أصـنام وأوثـان
والـدين عـاد غريبـاً بعـد جدتـه والحـق عـاث بـه بغـي ونكـران
ان يمنعوا النـاس مـن قـبر الحـسين فقد مـدت لـه مـن قلـوب النـاس أغـصان
هـذي القبـاب سـراج لا انطفـاء لـه وكيـف يطفـئ نـور الله طغيـان
تهـدي الـسماء بنـور مـن أشـعتها ويستـضيء بهـا في الليـل حـيران
تحنـى الـرؤوس علـى أعتابهـا فرقـاً وتـستجير أكاليـل وتيجـان
الحـق بـاق وإن عـز النـصير وان تـداول الحكـم صـبيان وعبـدان
والظلـم فـانٍ وإن طـال الزمـان بـه وإن تجبّـر فرعـون وهامـان(١)

(١) من قصيدة للاستاذ الشاعر محمد حسين الصغير ألقيت في ١٠ / محرم ١٩٩٢.

موارد البحث

١- القرآن الكريم.

٢- الاحتجاج / ابو منصور الطبرسي / تعليق محمد باقر الموسوي / منشورات دار لنعمان ـ النجف الاشرف / ١٩٦٦.

٣- الاسرار الحسينية / محمد فاضل المسعودي / مؤسسة الانوار الفاطمية ١٤٢٦.

٤- الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية / مجيد عبد الحميد ناجي / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٤.

٥- الاصوات اللغوية / إبراهيم أنيس / مكتبة الانجلو مصرية / القاهرة ط٤ / ١٩٧٤.

٦- أضواء على ثورة الإمام الحسين / السيد الشهيد محمد صادق الصدر ـ دار الكتاب الاسلامي / ٢٠٠٦.

٧- أعيان الشيعة / السيد محسن العاملي / بيروت ـ دار التعارف.

٨- الإمام الحسين شمس لن تغيب / الشيخ جميل الربيعي / دار الاعتصام إيران ـ قم/٢٠٠٥.

٩- الأمالي / الشيخ المفيد / تحقيق علي أكبر غفاري / مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم ط٥ / ١٤٢٥هـ.

١٠- أنساب الأشراف / أحمد بن يحيى البلاذري / تحقيق محمد باقر المحمودي / دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت / ١٩٧٧.

١١- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار محمد باقر المجلسي / دار إحياء التراث العربي ـ بيروت لبنان / ١٩٨٣.

١٢- البداية والنهاية / ابن كثير الدمشقي / تحقيق مجموعة من الباحثين بيروت/١٩٦٣.

١٣- تاريخ الأمم والملوك / الطبري / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار المعارف ـ مصر / ١٩٧٤.

١٤- التاريخ الكبير / ابن عساكر / ترتيب عبد القادر أفندي بدرات روضة الشام ـ د ـ ت.

١٥- تأملات في زيارة وارث / محمد مهدي الآصفي / مركز دراسات نهضة الامام الحسين ـ د ـ ت.

١٦- تحف العقول عن آل الرسول / الحسن بن علي الحراني / تحقيق علي أكبر الغفاري / رابطة أهل البيت الإسلامية ـ د ـ ت.

١٧- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / رسالة ماجستير هادي سعدون هنون / كلية الآداب / جامعة الكوفة / ٢٠٠٨.

١٨- ثورة الإمام الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر / بيروت ـ لبنان ١٩٩٦.

١٩- ديوان دعبل الخزاعي / جمع عبد الصاحب الدجيلي / النجف ـــ مطبعة الآداب،١٩٦٢.

٢٠- زيارة وارث / ضمن كتاب مفاتيح الجنان ـ قم.

٢١- سر الفصاحة / ابن سنان الخفاجي / تحقيق عبد المتعال الصعيدي / مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصر ١٩٥٤.

٢٢- سنن الترمذي / أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي / تحقيق محمود محمد محمود / منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية بيروت / ٢٠٠٠.

٢٣- الفتوح المكية / أبو محمد بن أكثم الكوفي / دار الندوة الجديدة / بيروت ـــ لبنان/ ٢٠٠٢.

٢٤- الكامل في التاريخ / ابن الاثير / تحقيق عبد الوهاب النجار ـ مصر ١٣٥٦.

٢٥- كتاب العين / الخليل بن أحمد الفراهيدي / تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي / مؤسسة دار الهجرة ـ ايران ١٤٠٩.

٢٦- كشف الغمة في معرفة الأئمة / أبو الحسن علي بن عيسى الاربلي / تحقيق علي الفاضلي / مطبعة ليلى ـ ١٤٢٦.

٢٧- المأثور من كلام الإمام الحسين / دراسة لغوية / رسالة ماجستير عصام عدنان رحيم / كلية الآداب ـ جامعة القادسية / ٢٠٠٥.

٢٨- مثير الأحزان / الشيخ شريف الجواهري / المكتبة الحيدرية / ١٤٢٣.

٢٩- مجمع الأمثال / أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار الجيل ـ بيروت / ١٩٨٧.

٣٠- مختارات من المحاضرات الحسينية / مجموعة من العلماء / ج٢ / مجمع أهل البيت في العراق ـ د ـ ت.

٣١- مسند أحمد / أحمد بن حنبل / ترقيم محمد عبد السلام عبد / دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٣.

٣٢- مقتل الإمام الحسين / الخوارزمي / تحقيق محمد السماوي / منشورات مطبعة الزهراء ـ النجف الاشرف ١٩٤٨.

٣٣- مقتل الحسين / عبد الرزاق المقرم / مؤسسة الخرسان / بيروت ـ لبنان ١٤٢٦.

٣٤- مناقب آل أبي طالب / ابن شهر آشوب / لمطبعة العلمية قم ـ د ـ ت.

٣٥- نثر الإمام الحسين / دراسة بلاغية / ميثم مطلك / رسالة ماجستير كلية الآداب ـ جامعة القادسية ٢٠٠٦.

٣٦- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر / الحسين بن محمد بن الحسن الحلواني / مؤسسة الإمام المهدي ـ قم ١٤٠٨.

٣٧- نهج البلاغة / الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) / صبحي الصالح / دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢.

المحتويات

الفصل الأول

روافد الخطاب الحسيني

الفصل الثاني

الخطاب الحسيني في بلاد الحجاز

الفصل الثالث

الخطاب الحسيني في مرحلة المسير إلى كربلاء

الفصل الرابع

الخطاب الحسيني في أرض كربلاء

الفصل الخامس

الخطاب الحسيني بين المنشئ والمقام